سلسلة ذخائر التراث الأدبي المغربي (35)

ديوان

محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي

(ت 1214 هـ/1799 م)

بسم الله الرحمان الرحيم

خليل لنا قد كان يبدي بشاشة وصدق طيب الود صافيا

فلم يك إلا أن حللنا بداره فأعرض عنا نائيا متجافيا

وبان الذي قد كان يبديه زخرفا من القول مطويا عليه وخافيا

جفاني ولم يخرج لوجهة مقدمي ونكب عني معرضا متحاميا

وقالوا لماذا، قد تأخر عنكم فقلت: اعذروه إنه كان حافيا

فهي له نعل ومقلوبها له فلا يستطيع المشي إذ كان حافيا

(مقلوب نعل) لقد أشرت به لما أشار به الوزير أبو عبد الله بن أبي الخصال الأندلسي، لما وقف بباب بعض القضاة واستأذن عليه فحجبه وكتب إليه بديها:

جئناك للحاجة الممطول صاحبها وأنت تنعم والإخوان في بؤس

وقد وقفنا طويلا عند بابكم ثم انصرفنا على رأي ابن عبدوس

أشار به إلى ما قاله الوزير أبو عامر بن عبدوس المذكور في بعض القضاة في ذلك المعنى:

لنا قاض له خلق أقل ذميمه النزق

إذا جئناه يحجبنا فنلعنه ونفترق

غزال يدري الألباب سحرا بلحاظ سقام كي يصيد

بنابل قد ثوى، بل كل جسم له في قلبه رسم جديد

إذا أبصرته فاحذر هواه بمقلته له بطش شديد

فكل القوم أسرى في لحاظ بأشفار لها منها قيود

مراض قد سفكن دم البرايا تحكم في الأنام كما تريد

رئمتها وطفا بدت في مجلس (بنابل)

بولع بلحظها أردت بسحر بابل

وعامل من قدها دون قناة الذابل

أصبت أخا النهى الذكي الألمعي النابل

وأدهشت ذا غزل بحسنها مقابل

فلم يجد لنسجه من حابل أو نابل

ثم انثنى تحسرا من دمعه بوابل

كم إدراها فارس برمحه أو نابل

وطالما قد نصبت حبالة للحابل

فما انثنوا من صيدها بطائل أو نائل

بل وقعوا جميعهم في غرض لنائلي

وقد حضرني منظر اشبيلية واسوداد جبل الشرف لتكاثف أشجاره وإشرافه عليها كأنه يرصدها والوادي الحائل بينهما المتردد بباب اشبيلية حيث يطلع وحين يرجع البحر فهو لذلك كالواله الحيران فصار كأنه أخذ اشبيلية فتأسف الشرف واسود غيظا، فقلت أبياتا على لسان الوادي:

لي افتخار ومجد وبلوغ منى فقت كل يمان صارم مرهف

عروس أندلس رقت إلى عاشق متيم هايم ببابها دنف

قد حزت بالوصل منها بهجة ولقد أسود من غيظه تبت يد الشرف

وقلت في رثاء الفقيه الأجل المحدث الشيخ سعد الدين من ذرية الأستاذ البركة سيدي عبد الغني النابلسي:

قد كان ما كنا نحيد منه ولا عنه محيد

خطب ألم وقد أشاب لهوله رأس الوليد

أودى به الجدل المحنك ك دخرها الكنز العتيد

صدر المحافل جشم أشياخها ما إن تميد

صد العدا وشجاهم ضد المقابل والعنيد

بحر العلوم إذا أفاد بنكتة ما إن يعيد

أخلاقه منعشة للروح كالعذب البرود

يبدي البشاشة والطلاقة للقريب أوالبعيد

لم أنس لا أنسيت وقت نظامها نظم العقود

بأريكة بحديقة بشذى أزاهرها تجود

فكلاهما متماثل وكلاهما روض تجود

لله أيام مضت لو كان ماضيها يعود

قالوا اصطبر لا تجزعن فكل موجود فقيد

فأجبتهم عن مثله ما الصبر من خلق الرشيد

وإذا الحقوق تأكدت منها له الحق الأكيد

إيه أسعد الدين سرت مصرعا قلبي العميد

من لي بمثلك في الحياة فلا أراه في الوجود

هيهات لا يأتي به دهر فخلفت وحيد

هل يسمعني أخو الحجا والعلم والرأي السديد

والسؤدد الموروث حاز طريفه وكذا التليد

والملجأ الأحمى ملاذا لمعتفي الركن المشيد

هالوا عليه الترب إن قلوبهم لمن الحديد

عجبا بليل غاسق وضعوا على البدرالصعيد

وبقوا حيارى يخبطون ولا كعشواء قعود

من للمجالس والمجالس والمدارس من عميد

قد عطلت أبحاثها واستعجمت لا من يفيد

خلت الديار لفقده فالعلم أعظم ما فقد

وضعوه حذو أبيه بين هما صفائح اللحود

عجبا لشمس أدركت قمرا وذا أمر بعيد

إن شئت عام وفاته فتلق من بيت فريد

سنة اثنتين فأرخن والألف والمائتين من بعد ذاك زد

أنعم مساء أيها الأستاذ والحبر المجيد

في نعمة وسعادة ورضى من الرب المجيد

وعليك من حب تحيت ه وقد أم البريد

لصبية بمغرب لي عنهم دهر مديد

مودعا منطوي الأحشا على حر شديد

وتخلفا قلبي لديكم يلزم القبر السعيد

وجعلته مرفلا فالا الإنعام يزيد

وأفيدكم بأنني عن ودكم لا لي محيد

يا أمين الجناب يا جب يوسف لقد حزت في البسيطة فخرا

صنت يوسف إذ رموه وألقوا فوقه من حجارة الأرض صخرا

فحنوت عليه حنو رحيم أو مريد من شيخه حاز سرا

ثم صادفك الفراق الذي يعقوب صادف قبل صبرا فصبرا

فبكاه يعقوب دهرا وأنت لا تزال تبكي ودمعك أجرى

وأراه مكفكفا فأجاب الجمال لو كان مرسلا صار بحرا

دمت في ترف وماء زلال تحسبه الوراد اريا وخمرا

ووفود تترى بعطفك طول الدهر تحمد منك وردا وصدرا

لم أنس عكة إذ جعلتها مأربي يوم دخلت إلى حمامها المعجب

إذ قال ظبي به أسقيك قهوتنا فقلت كلا فإني لست بالشارب

فقال لو من شراب قد حلا قلت إن كان ولابد من لماك مع شارب

ثم ثنا عطفه يميس من خجل فأكد التيه منه سورة الراغب

ورام مشيا فلم يقدر وأقعده ردف يعجزه بثقله الغالب

ثم تبسم عن در وعن شنب ومال به الحيا قسرا إلى جانب

أفديه من أوطف عن لحس وجنته يحمي بقوسين موثرين من حاجب

فقولي موثرين فيه تورية بالوتر المقصود من الإيثار وفيه تسامح.

ومرت لنا حقبة من الزمان في محادثة الإخوان، ومجاذبة أهداب الآداب مع الفقهاء والأدباء أولي الألباب، فمما أنشدنا لنفسه صاحبنا الفقيه الكامل العالم الفاضل، سلالة الأكابر والعلماء المشاهر، الأديب اللبيب الحسيب النسيب أبو عبد الله سيدي محمد بن الفقيه العالم العلامة المشارك النظار، آخر علماء الكلام وبقية المحققين الأعلام، أبو محمد محمد البيجري رحمه الله، قصيدة وقدمها نثرا، أنشأها حين ورد عليهم خبرنا بخروجنا من البحر في مدينة تونس، فقدمها بين يدي سلامه علينا نصه: أهدي لمحل العلا عالي المحلا، ما سنح لي من الفكر وإن لم يكن سمح بنسبة ما له من الصيت والذكر، استئناسا برضاه ومعولا من خلقه الكريم على مقتضاه، إذ النفس الزكية تجتزئ بالركية، لازال المجد لكم يربو ولا يكبو، والسعد يصبو ولا ينبو، آمين،

تاق قلبي فما له استقرار منذ جاءت من تونس أخبار

توقان وأنس اجتمع الشمل دان عندي فلم يسع إنكار

باشتياقي لمفرد في المعالي تترامى دأبا به الأسفار

والتأنس بالتفكر في أوصافه قد تؤنس الأفكار

قمر المجد سار في فلك الـسعد فذاك السيار والدوار

وتحرك ذا بتحريك هـذا ليس في غاية له إقصار

أترى يسمح الزمان بقرب منه متصل وتدنو الـدار

فننال من النوى بسرور في منادمة لها أسـرار

(كل ما قيض الإله له الألطاف بما جرت به الأقدار)

نرتجي دومه عزيزا كريما بالمنا في الهنا له استقرار

وهذا الرجل نسيج وحده نظما ونثرا وأدبا وخبرا، له بديهة سيالة يجيب في أسرع حصة من الزمان في كل غرض وما يتهيأ له، مع المروءة التامة والحياء والحشمة والسمت الحسن، والدين في السر والعلن، وبيته بيت علم وقضاء. فمما اتفق لي معه أبقاه الله ذات يوم، وقد كان في

مجلسنا سفرة وضع فيها ياسمين على ترتيب مخصوص، وحولها ريحان دائر بها ولم تستكمل دائرته، فقلت له في ذلك:

كأن ما جمع في سفرة ريحان قد حفت به ياسمين

وجه حبيبي تم في حسنه معذرا أفتى به العالمين

فأخذ الدواة والقلم وخط قبل أن يتكلم:

لذاك يسقى الكأس ممتزجا كوجهه في الوصف كي لا يمين

رأيته في حكمه منصفا يجريه عمدا دائما لليمين.

وقد استدعيته ذات يوم برسالة، فكتبت له بنثر وبعده أبياتا فمن فصولها: وإنا لننتظر قدومك علينا قبيل الشمس شروقا، والإبريق يصطك فؤاده لسقياك خفوقا، حتى نتقضى من

منادمتك حقوقا، فالساق مشمر عن ساق، والإبريق متأهب بما يليق لأن يريق، والكأس بحلا عسجدية كاس، والكل للقياك متأهب وبطاعتك متقرب.

مجلس أنس تم لاكنه إن لم تزينه بكم عاطل

أكؤسه مصطفة ترتجي سلوها عن سقيكم باطل

قد أوقفت إبريقها رائدا فامتد منه عنق يسأل

إن لم تقدر منكم زورة فدمعه هام يرى هاطل

كذا إذا أسعفتم باللقا فأمره مستبهم مشكل

بكاؤه الثاني فمن فرح وعكس ذاكم دمعه الأول

فلا تردوه لها خائبا عسى سرور بكم يكمل

فقدم بين يديه:

السمع والطاعات منا لكم واجبة والأمر ممتثل

نأتي على الرأس لمجلسكم إن لم تساعدنا له الأرجل

وبعد: المبرز في العلى المحرز للمعلى، محيي فصاحة الأوائل ومعيي سحبان وائل، كرم الله طلعته وختم على الدهر طاعته آمين، هذا وما عسيت أحلي ولو حصلت لي ملكة المحلي، أو حصلت أنواع بديعة الحلي، وأنت أعزك الله السفير بين الملوك، والوزير الذي هو في عقد الوزارة فاخرة السلوك، فأني يوصل إلى الأوج من فلك مجدك، ولا يقال للزوج إن له معنى من معاني فردك، بيد أنك حفظك الله كريم الأخلاق، وحضرتك العلية حضرة الإطلاق، فبساط أنسك لا شك أنه أرفع، لكن انبساطك فيه أوسع للنفوس وأنفع، وهو وإن كانت به الفرش المرفوعة، والأكواب الموضوعة، وألوان الطعام مما طار كما قيل وعام أو من غيرهما، كذلك المشوب بالطيب المشتبه بقلنسوة الخطيب، فخطابك البليغ أفضل من ذلك كله وأجل، ومنزعك اللطيف أوصل للنفوس وبها أحل، لأن ذوق معاني الكلام ألذ من ذوق ما في الأواني من الطعام وأجل وأكمل، ومما هزني من ذلك للكلام، ولزني في المداعبة

معك، كما لز الألف مع اللام، ما أودعته في رسالة الاستدعاء من قولك، والساق مشمر عن ساق، فإنه ذكرني قول بعض الحقاول:

لم أنسَ يوماً قام يكشف عامدا عن ساقه كاللؤلؤ البراق

لا تعجب إنْ قامت لذاك قيامتي إن القيامة يوم كشف الساق

وإني لما حضرت ذلك المجلس الأبهر، وأظهر فيه الساقي من شمائله ما أظهر، إنما تاه فكري في لطف مناولته، ووصف مطالعته لرضاك ومحاولته، فغبت بذلك عن ملاحظة الساق المشمر عنه، بل وعن الساعد الذي كان أقرب إلي منه، نعم

أتهم لك نفسي بنظرة أولى لمحياه، وكأن القلب بها حياه، لكن قلت في الحين على الشذوذ إياي وإياه، فلعل السيد لنفسه هيأه، والنظرة الأولى كما علمت معفو عنها، وإذا سمح قدرك العالي بالمداعبة فهذا منها والسلام.

فراجعته بقولي: أبقاك الله لطرفة تجليها، وبنات أفكار بدر نثارك تحليها، ونادرة تردفها بأخرى

تليها، تلك رياض تفتحت عن أزاهرها أكمام، وآن حين للأزاهر إلمام، هذه يقظة أو

منام، عهدي بالرياض لم ينتج الآن شمام، أو ذاك مسك فض عنه ختام، تحيرت في ذلك

أظنه سحرا أجل نفث به حبر وإن شئت بحر فخذ عن إمام، إمام تجملت بطلعته الأيام،

وتجمعت له شوارد العلوم فتسنى له بعد تفرقها التئام والتمام، أما الأدب فهو بعض بعض

فنونه، ورشوحه من معين أنهار عيونه، أما تراه قدوة للأنام حل من ذرى المعقول والمنقول حيث

لا محل للمحلى، وأربى فيما أبدع من البدائع على بدائع الحلي، أليس معدودا في إحراز السبق في

مرتبة لو كانت قبل المجلى، وأما ذكاؤه فشهاب يتوقد، وألمعية في كل آونة تتجدد، فقد غدا

إياس عن إدراك شأوه ذا إياس، عذبت مفاكهته وعدمت مشاكهته، رمى بسهمه في أغراض

المداعبة فقرطس، واستخرج من لجج بحارها من الغرائب ما أعجز من غطس، ما ألطفه تشبيها

يشهد للمشبه بأن له شبيها، في ذكر القلانس والخطيب، فقد هصرت من أفنان البلاغة كل غصن

رطيب، وما أحلى منازعك علوت منازعك، ولو حضر لأذعن لك ابن

الخطيب، وقد وصف سيدي ما استحسن من المجلس والساق، وساق ذلك أحسن مساق،

فأبدع ما شاء في تناسب واتساق، وأحكام المبنى وتسديد اللفظ لغرض المعنى، والخروج من معنى

الآخر حيث لا شعور للسامع، شاغلا له ببوارق سحرك اللامع، غير أن سيدنا يسر حسوا في ارتغا

وما أدري ما الابتغا، فقد رأيته راجع الالتفات لاستدراك ما فات، وللنظرة وحدها

استنزر ولصيده في جوه حلق واستنسر، وذكر أنه ما أعرض عنه إلا لتوهم أنني هيأته لنفسي

فاستأثرت به و إلا لألحفه بثوبه، فإن كانت المثابة العلية ممن يقنع بنظرة وإن أعقبت حسرة

وتمذهبت بمن قال:

وهويته يسقي المدام كأنه قمر يطوف بكوكب في مجلس

فقد استوفى حظه وأنال مراده لحظه، وليكتف بذلك أدام الله حفظه، ولم تبق له منة في

استبقائه، حيث استقصى الشمائل الناشئة عند المعاطاة من تلقائه، وإن لم يقنع بذلك

المقدار من التغزل، وأراد من خلع العذار كمال المرام من التنزل، وتمذهب بقول الآخر:

وضممته ضم البخيل لماله أحنو عليه من جميع جهاته

فلا ملام على اغتنام، فالمجلس والغلام مع كمال الحرام، ولعل بتيسر الجمع تجودكم عند الانفصال غمام، هذه دعابتي بعثت بها إلى محل كمالك، وعظيم جلالك ثقة ببرك ورحيب صدرك، واعتمادا على تحملك لمداعب وإغضائك عن المعايب، فاغض أبقاك الله واسمح وبعين الصفح والتجاوز فالمح.

وكاتبني بما نصه:

سيدي أدام الله لك السعادة، ولا قطع عنك من الإنعام ومديد الإكرام، كما لم تقطع عادة، إن هذه النفوس كما جاء تصدى كما يصدى الحديد، فتتأكد لذلك صقالتها التي هي لنورها كالتجديد، وإن مما اتفق عليه رؤساء الحكماء، وأطبق معهم نجباء العلماء، أنه لابد لها من رياضة، إذ التدريج حكمة هذا العالم وإن كانت القدرة فياضة، وصاحب القصر يهوى قبابه وتارة رياضه، ويستحسن من أزاهرها المختلفة ما خالطت حمرته بياضه، ولذا قيل:

لا يصلح النفس إذ كانت مدبرة إلا التنقل من حال إلى حال

كما قيل أيضا:

تنقل فلذات الهوى في التنقل ورد كل صاف لا تقف حول منهل

وفي المعنى:

أفد طبعك المكدود بالجد ساعة بلهو وعلله بشيء من المزح

البيتين. وقد علمت أعزك الله أن اللذة انبساط باختلاس، وأكمل اللذات استنباط حكم

همم الجلاس، لأن همة المرء ميزان عقله وبرهان فضله، وأكثر ما تظهر في قوله، المرء مخبؤ تحت

لسانه، وقد كان من تقدم من الكبراء والأمراء والوزراء يستعملون جل أوقاتهم في هذا المعنى،

يولعون به ويعنون أجل بذلك يولع وبه يعنى.

وأذكر الآن من ذلك ما حكاه الثعالبي في يتيمته، وقد ذكر القاضي التنوخي فقال: وكان كما

قرأت في فصل للصاحب، إن أردت فإني سبحة ناسك، أو أحببت فإني تفاحة

فاتك، أو اقترحت فإني مزرعة راهب، أو آثرت فإني نخبة شارب، إلى أن قال:

وكان من جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبي، ويجتمعون إليه في الأسبوع ليلتين على أطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها مثل المهلبي، فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذ السماع، وأخذ الطرب منهم مأخذه، وهبوا ثوب الوقار للعقار، وتقلبوا في أعطاف العيش بين الخفة والطيش، إلى أن قال: وعليهم المصبغات ومخانق البرم وفيهم يقول السري:

مجالس ترقص القضاة بها إذا انتشوا في مخانق البرم.

وإذا أصبحوا عادوا لعادتهم في الترهيب والتوقر والتحفظ، وأبهة القضاء وحشمة المشايخ الكبراء.

وإنك أسعدك الله لمن فرسان هذا الميدان، ولك فيه بحمد الله يدان، بل أنت أعلى علما وعقلا وكرما وفضلا، فوق المعروف والمقول في ابن معروف، شجرة فضل عودها أدب، وأغصانها علم وثمرتها عقل وعروقها شرف، تسقيها سماء

الحرية وتغذوها أرض المروة، لأن الإغتباط إنما يكون عند الأعواز وليس في المعتاد إعجاز، فمن لا توجد هذه المعاني والمعالي في زماننا إلا عنده، فهو كموحد الفترة الذي يبعث أمة وحده، وما كنت أظن الأيام تنتج عن عقم، أو تشفى مما كان بها من السقم، حتى طلع نجم سعدك في أفق مجدك، فأشرق إشراق الغزالة والقمر ذي الهالة، فلله أنت في القبة اليمنى، سعادة لك ويمنا، وجه متهلل بالبشر متجمل لا متبرم ولا متملل، ولسان يلفظ بالجواهر الحسان وبالجمان في أخبار الزمان، فإذا أمرت برز الحاجب لا بالكلام، ائتمر لأمرك ذلك الغلام المقارب للاحتلام.

سيدي كيف تحدك إذا اهتزت أعطافه، وارتجت أردافه تشابهت أوصافه، فتمايل قده وتسايل خده، لاريب أن ما بالقلب من الحور، هو مما في عينيه من الحور، وأنه إنما ذاب من ذبول الأهداب، أو من تراءى لغره على غرة، لكنه بالشفة يشفى فلمى ثغرها عسل مصفى، وجواهره أنقى من البرد، وأصفى ما أبردها على الكبد للمنفرد المستبد

كيف يسلو الذي تعشق أغيد صيد فاصطاد وهو قد كان أصيد

إن طرفي جنى علي ولم أج ن من الروض وجنة تتورد

كما قلت لا أعود إلى العشق و ابتليت ولكن العود أحمد

ها أنا مغرم به فاعذروا أو فاعذلوا فالحب دأبنا يفند

وكتب أبياتا أخرى مداعبا، مشيرا لقولي في الرسالة التي قبل هذه: فلا ملام على اختلام إلى آخره:

يا كريما عز وصفا وعظيما جل ألفا

أنت أولى بالوفا من كل من بالعهد وفَّى

فاجمع الشمل كما قد بهت أكرم صاح ضيفا

إنما ينفع إلف إلفه في ذاك عرفا

هكذا المزحة ظنا بل يقينا بك يلفى

إنك المرء احتمالا شأنها عندك خفا

فلتكن ساكن بال ذو النهى إن هم عفا

كيف لا والشيب عال رأسه والماء جفا

لكن الأليق حزم يوم الحذار خوفا

فاستـرب مـن يتزكـى واحـذر المألـوف ألفـا

فأجبته بقولي، مضمنا حكاية تحكي على لسان حال الفخ في خدعته الطيور كي يصيدهم، مظهرا شحوبه ونحوله حتى يتمكن منها:

أحكـم الواضـع وصفـا وسقـى روحـي صرفـا

بمعـــان لمعـــان قربـت للحـب زلفـا

شافعــات لغـــرام أكسـب الأعضـاء رخفـا

قائلـــات خاتلـــات ذو النهـى إن هـم عفـا

أكـد المختـل بقـول نسـف الأوهـام نسفـا

فاستـرب مـن يتزكـى واحـذر المألـوف ألفـا

وفيـــه توريـــة إذ قلـب خـف فخـا

فتذكـر قـول شيـخ قلبـه للصيـد خفـا

إذ أتته حائمات فأراها منها ضعفا

وانكسارا وشحوبا وإلى الفرصة خفا

أترى أني غر لم أر في الحرب زحفا

أترى أنك سال عن غزال رق ظرفا

تضع الأسرار في القلب فما تنفعك رصفا

فإذا صار أماما صارت الأرداف خلفا

كيف ترجون سلوا ذاتكم بالحب عجفا

ذا محال ذا محال أدهش الأبطال خوفا

أذعنوا للأسر قسرا لفظوا ترسا وسيفا

دع بنيات الطريق واسلك المجد جد تشفى

واغتنم ساعات أنس واخطف اللذات خطفا

لا يرى للصب شيء من رضى المحبوب أشفى

(دمت في عيش هني لا ترى في الدهر عنفا

رافعا في كل حين عن حبيب القلب سجفا)

إن كنت تسأل أين قدر محمد بين الأنام

فاصغ إلى آياته تظفر برأيك في الأوام

أكرم بعبد سلمت تقديمه الرسل الكرام

في حضرة للقدس وافاها بعز واحترام

صفوا وصلوا خلفه إن الجماعة بالإمام

للشهب نور بين والفضل للقمر التمام

سلك النبوة باهر وبأحمد ختم النظام

هذا الكتاب دلالة تبقى إلى يوم القيام

شهدت له من بعد عجز ألسن اللد الخصام

خير الورى وأجل آيات له خير الكلام

فعليه من رب الورى أزكى صلاة مع سلام

وللكاتبه عفا الله عنه:

حاكت على نسج البديع مطارقا تغشي المحاجر من بريق حلاها

لو حاك البلوي فرائد سرها أغناه عن شفق المغيب ضحاها

وإذا الحجيج غدا يقضي مناسكا نال البرور برصد نجم هداها

لا غرو إن كان ابن عثمان الذي أنشاها فردا في المعالي تناها

سبقت له قدما مفاخر رتبة ضاءت بها قنن العلا ورباها.

وقد بعثت إلى صاحبنا الشيخ محمد كمال الدين الغزي مفتي الشافعية، وكان من أهل الأدب والظرف، تمرا من تمر المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام على سبيل التبرك، وسبحة من النوع المسمى باليسر ومعها أبيات موريا باليسر وهي:

أحيي مقاما خص بالرحب والبشر كما خصصت أنفاسه بزكي النشر

تحية حب لا تزال معادة بيوم إذا يجري وليل إذا يسري

وأهدي إلى الذات الكريمة سبحة تظل بها يمناك ملئى من اليسر

ومن طيبة جئناك بالعجوة التي أحب رسول الله عن سائر التمر

ليغنك منها لونها وسوادها من المسك عن عرق وعن عنبر شحري

فهيئ لها منكم قبولا أعده لدى ذكركم يوم السلو من الفخر

فأجاب عنها بقوله:

أمالك رق النظم طرا مع النثر ومن حاز مجدا ساميا هامة النسر

ويا من تسامى في المعارف رفعة بها بهجة الأفلاك والأنجم الزهر

وفت منك أبيات حلت كلماتها وفاقت بهاء للدراري وللدر

وصحبتها وافت ووفت وقد سمت هدية حبر قد حوى أكمل الخبر

وأرسلت لي يسر المسابح منة لأعلم أن اليسر من كفكم يجري

فلا زلت في حفظ الإله وصونه تميح لآل النحر من فيضك البحري

ودم رونق الدنيا فإنك أوحد وبر ببر مالئ البحر والبر

مدى الدهر ما وافى النسيم إلى الربا وأهدى لنا من زهرها طيب النشر.

جاء من طال ما تشوقت النفس إليه بشرى لنا وهنية

أنعش الروح شم رياه لولا ذاك لم تبق في الحياة بقية

إذ تداعوا بالأمس وسط نهار درة الملك قد أتتنا جلية

فتأخرت عن لقاه محقا فارتقاب الهلال يلفى عشية

هكذا الشأن ما تقولون أنتم عن يقين قلتم وصدق ونية

فأجابوا أما ترى الشمس ولى نورها كاسفا رأته البرية

قلت في الفقه إن تبدى هلال في نهار أعطوه حكما وليه

إن عهد الملاح ليس بواق مثل سائر الأهل النسيب

كل يوم يعدني بمجيء يضرم الشوق في فؤادي الكئيب

عللتني بكاذب الوعد دأبا بانتظار الآمال يطفي لهيبي

ليت شعري أذا الصدود جفاء أم حذار من وقع عين الرقيب

أو تظن عنكم سلوا فتفني ه بموعدكم وتحيي وجيبي

موقدا في الفؤاد نار غرام موقدا في الحشاء جيش نحيبي

يا مثير الغرام والله يعفو عنك لم قد أبحت طول لقربي

جد بوصل ولو بطيف خيال إذ هوى النجم في الدجا للغروب

وأمنت الوشاة والرقبا طرا وغاب هلالها المرقوب

وتدارك حشاشة القلب إذ كا ان لمثواكم حنَّ للموهوب

طمعي الآن في الوصال قوي وشفيعي في نيله المرغوب

يصدق الفجر بعد ما يتجلى كاذبا في الآفاق غير معيب

نادرة

وذلك أن الرجل القسطنطيني سفير السلطان العثماني، اشترى جارية فوجدها تبول، فأراد ردها إلى البائع فامتنع، وعولج في الإقالة فما نفع، فتعلق بنا الرجل المذكور لنخاطب قاضي البلد لعله يحول بينه وبين البائع، فصدرت عني أبيات رأيت أن أذكرها لما فيها من التمليح، والتنشيط والهزل بالنكاية والتصريح، تسلية للقارئ وإحماضا، وتأنيسا له كخابط ليل أومض له البرق إيماضا، وإلا فما المقصود في تخليد كلام في حيز الهذيان معدود، والمدار على النية في السر والعلانية، وهي هذه:

يا أيها القاضي الإمام الكامل وكافل الأيتام والأرامل

وابن السبيل والغريب قدما يشمله الإحسان منه حتما

ضيفكم الفقيه إسماعيل يبيت بالليل له عويل

قد اشترى من ذي البلاد جاريه يحسبها على المراد جاريه

فلم ير من خيرها علامه أعيب من بغل أبي دلامه

تبول بالليل على الفراش على الثياب وعلى الرياش

منتنة الريح وعكسه إذا حزفت بماء قبحت به أذى

كفأرة المرحاض أو كجعل فقد أضر ريحها بالمقل

لا مثل نتن جيفة أو حيض أو كلطة ممزوجة ببيض

لولا هبوب الريح ذات المدد وكوننا في منزل عن بعد

نظل بالبخور طول الأبد أضر نتنها بأهل البلد

أما ثيابها فرأينا تصطفق تقطر من أبوالها و تلتزق

عيناه من صنانها في كمد ولو ثوى في جبل من إثمد

أشفاره إن لم تدارك سقطت والتزقت أجفانه واختلطت

يقبح أن يأتي لنيل رفعة ويترك الزغب تحت الدفعة

مع تحمل نوى الأسفار يرجع للأهل بلا أشفار

عيناه من جواركم في حرم من بائع عن الإحسان برم

فهو بما ضره غير معتبر هان على الأملس ما لاقى الدبر

فاستنقذَتْهُ وادْفَعَسَّ عاره وراح فيه جانب الإمارة

وهو مع العلم الذي يمت به إليكم شكركم ينبت

في كل بقعة وكل أرض وكل إقليم ليوم العرض

ثم توسط له في ذلك فوقعت الإقالة من البائع وذكرها باق إلى الآن شائع.

هلا رأيت الدهر وما يفري أودى بمولى لي أبي الخير

مولى يقيك بنفسه حدب بوفائه أربى على الحر

تفدي موالي الدهر مهجته تفديه أنفسها على نزر

يجزيك مشهده وربتما أغناك في الحضر وفي السفر

متسارع فيما يناط به بقضائه كالسيف ذي الأثر

قالوا وقد سجي وألقي في لحج من اليم بلا قبر

هلا دفنتم جسمه قلنا العنبر الشحري من البحر

فجع الزمان بفقده أترى إبقاءه يوما على دخر

لهفي على صوان أسرار لهفي لإلف واصل بر

عظم المصاب به فعزاني من لا دراني بل ومن يدري

وأجانب وأشائب عدد من خامل أو نابه القدر

أهل السفين جميعهم حزنا رقت لحالي عصبة الكفر

إلا ابن يحيى لـم يُحَيِّ و لـو بسلامـه متعمـدا هجـري

يا ليت شعري مـا يكون لـه عـذر على إتيـان ذا النكر

أم ذاك منـه تكبر فلقـد ورد النكير على ذوي الكبر

أم رغبـة عن سنـة بهرت للمصطفى كالأنجم الزهـر

أم لم يكن في شرعة موسى متعارفـا لفالـق البحـر

أم ذاك منه شماتـة قبحـت لـوم الشماتـة شائع الذكـر

قالـوا جميعـا مـا أقام بـلا سبـب تخلفـه على عـذر

قد بات في شغل وفي شغـل سرد الضراط لمطلع الفجـر

مترادفـا لا يحسبـه لـه إلا المحصوت منه ذا الهـدر

يدعـو البـراز فيبـرزن لـه قـرن بعاجـزة كمـا القصـر

صخابـة رعـادة الأصـوات كأنهـا مجانـق الشـر

أفتى الرئيـس مـا لديـه مـن الطيـب لمركبـه لـذا العـر

أفنى البخور في السحور إذا كثر الفساء مع جشا الصدر

لا سيما جيرانه فلقد صارت محاجرهم بلا شفر

لم ينفع الإثمد كحلهم فليجرن لكاشف الضر

رجل أعشى العينين كان . . . وفي . . . أم اتفاقي بحس التوقير

وإذا شككت فجدون نظرا في السيد العربي ترى خبري

إني أخاف على أبي حفص فاهرب بعينيك تاليا شكري

واربأ بنفسك أن تجاورها من خنفسا أم الفسا واسر

إلا تفر فاحتسب بصرا هذي النصيحة لا تكن غري

يا أيها الفرد الذي يرجى للخيل والخطية السمر

صن هاتك النفس التي كرمت فهي التي نعتد للدهر

عن هذه الأوخام إن لها في النفس وخز موثر الضر

واجعل لبابك دونه غلقا فإذا تكلم من ورا ستر

رد السفينة ضرطة قسرا عن قصدها من حيث لا تجري

يشكي أذاه الدبر أسفهها عن الرفاق لسامع الأمر

يا واحد الناس في علم وفي شرف وأفضل القوم في ذات وفي سلف

وتحفة ظهرت ما إن يعادلها شيء نفاستها أربت عن التحف

وبحر علم طما فما تنقصه الوراد كلا ولا اغتراف مغترف

ومعدنا لنفيس الدرس أجل ذا سميت يا ذا المعالي مصطفى صدفي

مالي أراك تخلفت على علس عن وصل حبٍ لكم بر بكم ووفي

وقد مضت مدة من قبل ذا ولكم عافية الله وهو ذو ضنى متلف

أبقاكم الله لا تحصى مآثركم وذكركم دائما يرسم في الصحف

كتائب النصر قد أتت لكم تنصر ترف أعلامها راياتها تنتشر

لعلها فرصة أتى بها القدر أمكن منهم أعدا الله فلتشكر

لدولة صيتها في الأرض قاطبة فالبحر يعزى لها والبدو والحضر

قد طال ما طاعنت وضاربت في العدا وملكوا الأرض والطغاة قد قهروا

لا غرو إن لهم في الدفع سابقة عن دين أحمد ما أربحه متجر

والله أكرم أن أولى الجميل فلا يقطعه منة فالفضل لا يحصر

فكم فتوح ترادفت على نسق لذي الملوك التي فخارها أشهر

خلائف من بني عثمان من لم يدن بطاعة لهم عرفانه نكر

فقد أطاعهم حتى الوعول لها في قنن للربى شواهق وكر

خلفهمُ باطش عبد الحميد الرضى ملكه الله ما دارت به الأبحر

توجه الله من جلاله عندما لم يأذن الشرع فيه إنه منكر

إن الجهاد لهم سيما تميزهم عن الملوك فلا جبن ولا خور

فسيفه صاحب للفتح ثم كذا عزمه والنصر إلفان إذا ينفر

هيا له الله من جند السما عسكرا فجيشه في الوغا جيشان إذ يذكر

يا أيها السيد الكاهية الذي بدا في عصرنا زينة تغبطه الأعصر

قل للوزير أدام الله دولته ميسرا أمره يجري به القدر

لا عدم الملك من علياكم أبدا وزارة سعدها تبدو له غرر

فكن على ثقة فالله ناصركم ومن يكن ناصرا لله ينتصر

نعم ويمنحكم رقاب شرذمة أهل الضلالة إذ أنعمه كفر

إيه وتخلى ديار الكفر أجمعها فالفتح يقدمكم والنصر والظفر

دان لك الدهر بالله العظيم فما تشاء من ذا الورى إليه يبتدر

فعن قريب ترى مسكوف يرفل في قيد الحديد ولا حصن ولا وزر

عنهم بمغن فتيلا اذ تحيط بهم عساكر فتكها في الحرب لا ينكر

مقلدين سيوفا غير نابية عن الضريبة لا تبقي ولا تذر

معتقلين رماحا طعنها في الوغى سلكى ومخلوجة شهب لها شرر

رجومها حرقت شياطين الكفر قد ولت هرابا على أدبارها تدحر

والخيل تنحط كالعقبان مسرعة فرسانها آلفت لحم العدا تجزر

عصائب الطير في الجو لها عسكر يتلو عساكركم جيش العدا تخزر

كأنما الحرب نادتها وقد صنعت وليمة الجفلى فهي لها تنتظر

جوارح أيقنت أن العدا جيف لها فأبرزت المخلب والمنسر

والسيف بددهم والسبي قيدهم وكلهم بلباس الذل مُدَّثر

ورحتم بعزيز النصر خولكم إياه رب العلى وحظكم أوفر

دمتم فدامت لهذا الدين بهجته معززين له وسعيكم يشكر

لِيَهْنكَ الفأل إن الفأل قد حبه رسولنا المصطفى وذاك مشتهر

صلى عليه إله العرش ما سجعت ورقٌ وما عطرت أسحارها الزهر

هذا لغزا عرضه علي السائل وهو هذا:

وأي رباعي تعالى مكانــة به تضرب الأمثال يايها البحر

غدا ربعه صدغ الذي أنا مغـرم به ثم ماضي الفيء ربع له قدر

وربعاه في التنزيل أول سـورة تبين ولا تخفى إذا تلي الذكر

أجبني إلى ما قد قصدت أخا الحجا فمعروف هذا اللغز ليس له نكر

ولم يذكر جوابا عنه وقد نسخ لي جوابه، وفي المجلس جمع من أدباء أهل الشام، فعرضته على كل أديب لعله يجيب، فأقروا بالعجز دون احتشام، فقلت ورأيت أن نذكره وهو:

فلبيك يا أصل المعارف والنهي إجابة مأمور إلى من له الأمـر

عقيلة أفكار جلوت قد ازدهـت بحليك لكن دون منظرها ستـر

فأرخت عليه كل أسود فاحـم وفرع أتيت تحته القمـر البـدر

فأبرزتها مجلـوة لمنصـة تتيه كما تبدي الحيا غـادة بكـر

الجواب: فاحم، فالألف هو مراده بقوله ربعه صدغ الذي أنا مغرم إلخ، لأن الشعراء يشبهون الصدغ والعذار بالألف لقوامه، قال الشاعر:

خط على خـد. . . مثـل مـا دبت على. . . أرجـل أنمل

والفاء هو المراد بقوله ماضي الفي لأن ماضيه فاء، فهذان ربعان فاء وألف، والحاء والميم هو المراد بقوله وربعاه في التنزيل أول سورة إلخ، فإذا جمعت هذه الحروف صارت فاحم وصف للصدغ، ويرشح أن مراده ذاك قوله صدغ الذي أنا مغرم إلخ، فأنه ينظر إليه بصرف خبر والله أعلم.

دمشق الشام حازت كل فضـل سقـاه اللـه من قطـر بهي

مباركـة مقدسـة تسامـت فخـارا ليس أمره بالخفي

حوت دنيا ودينا ثم ذكرا جميلا فاح بالعرق الزكي

هي البستان في الدنيا تثنت لدان غصونها من صرف سقي

إذ الأنهار تسقيها دراكا تطوف روافدات في حلي

إذ الأطيار تنشدها ارتياحا تناغيها بلحن أعجمي

جداولها على الحصباء تجري تكسر جسمها بعثار جري

ونرجسها لذاك الحزن يرنوا بلحظ من مدامعه ندي

وروح نسيمها يأتي عليل المهب بالغداة وبالعشي

تجاه الصالحية أرض خير ومدفن كل حبر أو ولي

حوت أشباح أقوام كرام من أوتاد و أبدال ندي

حوت بحرا من الأذواق طام وبدرا ساطع النور البهي

وطودا شامخا أربى برضوى رسوخا قد أتى بهدى جلي

عوارفه بحار زاخرات ونسبته غيره مثل القري

مناقبه الكثيرة لا تناهى فنشر حديثه في كل حي

دواوينه من الأمداح ملئى لصحب أو ولي أو نبي

فلم يترك إلى غير مقالا وأب الكل ذو حصر وعي

فصاحته من الرحمان فيض فما سحبان أو غيلان مي

يجلي المشكلات إذا أتته مقفلة بفهم الألمعي

وعلم راجح فيما يراه وعزم قاطع بأشد فري

ودافع عن جناب الشيخ حقا وأبدى نصرة ابن العربي

سقاه الله أكؤسا دهاقا بحضرته بمشرب روي

فكم أجلى من أوهام لقوم وأنقذ آخرين بلج غي

نوالي الشكر للرحمان دأبا على قربي من القبر الزكي

هو المعروف إن ناداه عاف هو المعروف في الخطب الجلي

يسارع للصريخ إذا رآه ويكشف كربه من غير لي

أيا عبد الغني إياك أعني فداركني أيا عبد الغني

أيا غوث الورى من كل خطب تحيزت لجانبك العلي

أيا ذخري أيا كنزي أجبني فوا غوثاه ما يبيس عني

فإني لا أبالي في زماني وإن خلفت أهلي أو ولي

إذا كان اتصال في حماكم بلحظ منكم وجميل رعي

ونادتني عنايتكم سريعا أمنت محمد من كل شي

بشرق أو بغرب أو بجوف وقبلته أو البحر الطمي

فعار أن يضيع و لو عقال على حامي الحما السامي القوي

قصدتك أن توجهني بأمن إلى المختار من بيت قصي

ورفقتنا وكلهم أتاكم يؤم حماك من بلد قصي

وأوبتنا جميعا في أمان إلى أوطان قومي مع بني

ومنشئها ابن عثمان ينادى محمد مغربيا مالكي

ويسأل راغبا من كل قار دعاء بالمفاز الأخروي

بجاه المصطفى الهادي أجبنا وأرشدنا إلى السبيل السوي

وصل يا إلهي ثم سلم عليه من رسول مصطفى

ومنهم الفقيه اللبيب الحسيب الأديب كمال الدين الشيخ محمد بن محمد الدمشقي المشهور بالغزي الشافعي، اجتمعت معه في جامع الأموية وأدخلنا إلى بيت له في المسجد كبير في ناحية الصحن، يقعد فيه بقصد المطالعة والإفتاء، وأتى إلينا إلى منزلنا الذي كنا به ودار الكلام بيننا في الشيخ الجليل صاحب الكرامات سيدي أرسلان، فقلت له: من هو هذا الرجل، فقال لي: أبعث إليك التعريف به فأبطأ، فأرسلت إليه بطاقة نصها: الحمد لله وحده، أحيي طلعة ذلك الهلال المرقوب بسلامته من النقص بعد الكمال، الذي هو للدنيا زينة وجمال وللدين كمال، وللمستمعين فال وللمعتفين آمال، تحية حب معتكف على حبكم لا يبرح، وذي وجد بمحاسنكم لا يكيف لعدم انتهائه ولا يشرح، ويستنجز منكم ما وعدتم به من ترجمة الشيخ أرسلان، فقد كان عليكم في ذلك الإعتماد والتكلان، والله تعالى يتولى هداكم ويفسح في بقاء مدتكم ومداكم، ولا تبخل علينا برؤيتك، أنفسنا تفديك ثق ولاتجعلنها بيضة الديك.

فبعث الترجمة ومعها أبياتا نصها:

يا واحد الفضل وفرد النهى وأكمل الناس مقاما وحال

ومن رقى بجده رتبة قد قصرت عنها فحول الرجال

ومن بميدان العلوم اغتدى إن جال لم يبق لغير مجال

لا عجب من بدر فضل أضا فمن جهات الغرب يبدو الهلال

تبارك الواهب قلبي له وجل من قد خصه بالكمال

فأجبته بقولي:

وأنتم أهل لكل الذي ذكرتم بلا بقاء احتمال

وحزتم علما ومكرمة لله أنت يا فصيح المقال

خلقا وخلقا وانبساطا له أدب غض للنفوس استمال

وحلية حلاك رب العلا بها لكم على القلوب اشتمال

فما عسى يثنى عليكم به وأنتم للدين صرتم كمال

الحمد لله الذي يثيب ويجتبي إليه من ينيب

معززا صلاح هذي الأرض بدفعه ببعضنا عن بعض

والخلق عيال على كماله أحبهم ذو النفع لعياله

لحادث يشكي لذي مروءة يسلي هموما نزلت بهم

غاية مأربي لكم وحرصي أن تنقذوا عبدالجليل الحمصي

جعل في الأغلال والقيود في ظلمة في باطن الأخدود

حتى يؤدي لقاضي البلد ربع كيس من قروش العدد

من غير ما جرم ولا جناية فلتدركنه منكم عناية

من أجل ما حكم فيه وقضا أعيذكم بالله من سوء القضا

ما أنزل الله بها سلطانا فالظلم يخلي الدور والأوطانا

حرمة مال المؤمنين كالدم عن النبي رواه ذو التقدم

وقد أتانا راغبين أهله ونحن جئناك فأنت أهله

وبعثت بأبيات للفقيه الجليل المحدث صاحبنا الشيخ سعد الدين النابلسي ونصها:

خليلي قد حششت الصبر حشا فسار مخلفا في القلب وعشا

وقد أنشأ الفراق سحاب بين عبوسا عارضا ما فيه غيشا

فأرسل من صواعقه دويا تصير له جبال الصبر برشا

وآذن بالرحيل عن خليل صفي لا له في الورد نكشا

تزان به الصدور لذي دروس فإن ينطق فهو السحر نفشا

أسعد الدين ساعدني فقلبي رهين عندكم وأطال مكثا

وكيف يكون لي جسم سفير وقلبي ما يريد فيه لبثا

وهل جسم بلا قلب ترفق بجسم صيرت أعضاه رفثا

وقد قالوا الفراق أخ لموت فجهز نحونا جيشا وبعثا

فإن تمنن فبالذي قد ملكتم وإلا صار ملكا لكم وورثا

وصبري بعد تسليمي عليكم جميل حبكم لا يطيق بشا

وقد سألني بعض الإخوان من الطلبة الملازمين لنا، أن ننظم لهم المناسك على مذهب إمامنا مالك رضي الله تعالى عنه، فلم يمكنني إلا مساعفته فنظمتها وختمتها بدعاء دعونا به عند مواجهة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وأردت أن نثبتها وهي هذه:

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

قال محمد هو ابن عثمان الحمد لله الرؤوف الرحمان

معلم الإنسان ما لم يعلم من فضله علمنا بالقلم

ثم صلاته على المختار شفيعنا في الحشر من النار

وحزبه ورهطه الأخيار وآله وصحبه الأبرار

وبعد حمد الله والصلاة على نبي هو النور الذاتي

لما أخذت في طريق الحج أسير في بيداء ذات فج

سألني البعض من الإخوان عليه صيب من الرضوان

نظم المناسك على تقريب معينة الأمي لا الأريب

فلم أجد بدا من الإسعاف عوفيت من قهر ورد عاف

والله أسأله أن يعيننا على الذي قصدته تعييننا

سمّيتُه نور الضيا الوهاج على دلالة مريد الحج

الحج فرض مرة في العمر خلاف في تأخيره أو فور

وعمرة إيت بها في السنة واحدة موافقا للسنة

أركانه أربعة مفروضة الإحرام والسعي كذا الإفاضة

طوافه بعد وقوف عرفه ليلة نحر ساعة تلك الصفه

فهذه إن تركت لا تجبر بسهوه أو جهله لا يعذر

وواجب من غير ركن يجبر فالدم إن تركته لا يهدر

إحرام ميقات طواف من قدم فالدم إن تركته عمدا حتم

لا مع عذر ولنسيان دهم تلبية=والنطق بها منعدم

أو أهملت في أول الإحرام أو بعده مثله في الأحكام

وركعتا الطواف حيث تركت أو فصلت وعن طواف بعدت

تجرد من المخيط قبله وصلك بالسعي الطواف فعله

والمشي في الطواف والسعي معا للقادر من غير تفريق اسمعا

كذا الوقوف في النهار واجب فالدم إن تركته يا صاحب

والبدء بالحجر في الطواف إن لم يعده قبل الإنصراف

والدفع من عرفة من اللغوب ولم يجاوزها إذا بعد الغروب

ترك ثلاث بمنى يوجب دم ولو في جل ليلة يوجب ذم

من ذاك أن يمشي من قد وصفه قبل دخول مكة لعرفة

لغير عذر ومع الإمكان مؤخرا لبعض ذي الأركان

رمي جمارك ولو حصاة إن خرج الوقت من الآفات

كذا وقوف عرفة نهارا فالدم إن تركته جهارا

لغير عذر ثم إن تؤخرا رمي جمار أو حصاة مضطرا

عن النهار كله لليل فاحذر وكن متبعا لقول

نزول مزدلف مع حط الرحال رمي ونحر حلقه وهو حلال

تقديم جمرة على الإفاضة والدم في العكس مع المضاضة

وركعتا الطواف إن أديتها في البيت والحجر وما أعدتها

فالدم في البعض بالاتفاق وهو على مشهورها في الباقي

سننه غسل صلاة ركعتين لبس ردا نعلين ثم أزرتين

ووصله مع حضور نية إحرامه بكلمة التلبية

وجددنها عند كل حال تجددت بفعل أو مقال

لدى نزول وهبوط وصعود كذا قيام أو مقام وقعود

خلف صلاة رؤية الرفاق سماعه تلبية الخلاق

وسوقه الهدي وإن لم يجب عليه فهو أفضل التقرب

إشعار ما يشعر مع تقليد لما يقلد بلا تفنيد

قصد إلى مكة بالإحرام تقبيله الحجر واستيلام

اليمني أول الأشواط من سنن الطواف لا الأشراط

كذا دعاءه وذكر الله دون قراءة بلا اشتباه

والرمل في الثلاثة الأشواط والمشي في الباقي بلا اختلاط

تقبيله الحجر الأسود لدى خروجه للسعي دع من عاندا

رقيه على الصفا والمرو مستقبل البيت بصدق النجوى

كذاك ما بينهما مع الخبب بطن مسيل فاعله لا يخب

وثامن الشهر اخرجن لمنى بقدر ما تدرك ظهرا ومنى

وبت بها ليلة يوم عرفة وأقصر صلاتك وكن ذا معرفة

إلا إذا كنت بها مستوطنا كمن بمزدلفة قد قطنا

أو عرفات كلهم يكمل من قصرها يمنعهم المنزل

واقصد إلى عرفة بعد الطلوع مبيت مزدلفة بعد الرجوع

وجمعك الظهرين قل في نمرة بإثر خطبة نعم بلا مرة

واجمع عشاءك بمزدلفة لمغرب تحز كمال الصفة

تقصير مرأة وحلق الرجل إلا لخوف من أذى أو وجل

إلا صغيرة هما سيان طواف للوداع خذ بيان

وغير ذا أفعاله مندوبة مما تكن أفعاله مطلوبة

أما المباح فهو غير ما ذكر نعم فجزئياته لا تنحصر

أذكر ما يوهم منها منعا إفادة لطالب ونفعا

فمنه أن يغسل بالأشنان كلتي يديه فخذن بيان

ورعيه البهيم في الحرام وهشه للشجر الكرام

وأكله الأدهان مثل السمن بغير طيب فكن في أمن

يرد من له عليها رجعية إذ هي في الشرع كمثل الزوجية

ويشتري العبيد والجواري ويستري من ذلك الجواري

يحرم في الثوب الذي فيه علم من الحرير ولعذر احتجم

فإن يكن شعرا لذاك قد حلق فقدية راتقة لها فتق

وينشد الشعر الذي لايذكر فيه النساء والخنا والمنكر

لا سيما إن كان فيه وعظ ففيه ذكرى للنفوس حظ

ومنه الإستظلال بالبناء وثابت الشجر والخباء

كالظل من بجارة ومحمل لا يستظل منهما بداخل

من استظل برداء على عصا فقدية وإن تعمد عصى

ويتقي الشمس وريحا بيد والسيف قد أبيح للتقلد

العربي منه لا العجمي عرض حمالة لذا منهي

وشده نفقة بوسطه جرابه بصدره وربطه

يزيل ما تحت أظافر وسخ من قذرات أوعفونات وسخ

وطرده عن رحله وقوته طيور مكة لخوف فوته

وذبحه الأنعام والدجاج وصيد ماء كله لا لحاج

محظوره ثلاثة تفسد مكروهها ومفسد ومجبر

فالمفسد الجماع بالإطلاق كمني بنظر الأحداق

نعني إذا أدامه أو فكر تحريك مركوب عليه يجري

قبل الوقوف مطلقا وبعده بشرطه فلتفهمن قصده

أما إذا أمنى بلا استدامه عليه هدية ولا ملامه

كذا إذا أمذى وإن يقبل على فم عليه هدي فقل

ثم على غير فم فالهدي كجسه إن كان منه مذي

وحيث قلنا بفساد الحج فواجب تكميله بعج

مع القضا في قابل بفور والهدي ثم ذبحه أو نحر

مجبوره لباسه المخيط وجعله لعضوه المحيط

ولو قليلا مثله كخاتم فإن يكن عمدا فهو آثم

وستر مرء وجهه ورأسه وإن بطين من أذى حرسه

ومرأة وجهها أو الكفين لغير سترة بغير مين

وتلبس النساء ربات الحجال من المخيط ما يشأن لا رجال

مؤنث الطيب عليه جرم فعله قصدا عليه جرم

الا إذا ألقاه ريح أو بقي من قبل إحرام وبالقرب اتقي

أو من خلوق كعبة أصابه فإن يقل جبر ما أعابه

دهنه لحية ورأسا أصلعا وجسدا لمن أصيب قل لعا

إلا إذا كان بكف أو قدم لعلة بغير طيب كالعدم

إبانة الظفر لغير عذر ورفع ضر وسخ أو شعر

وقتله لقملات كثرت وطرحها عنه كما لو قتلت

عقد نكاح محرم لا يبرم عن نفسه وغيره محرم

قبل البنا وبعده ينفسخ ولو بالأولاد فليس يرسخ

يمنع صيد حيوان البر كذا التعرض له بشر

ولو بأدنى سبب كفزعه فمات من سببه بروعه

وجروه وفرخه وبيضه فلا تطف بها فذاك بعضه

إلا العقارب أو الحيات فارة فتلك مؤذيات

كذا غراب وحداءة وفي لصغير منهما خلاف اقتفي

وعادي السباع مثل الذئب إن كبرت فاقتل بلا تتريب

ووزغ يقتله الحلال لا محرم وليجتنبه قالوا

بقتل صيد يجب الجزاء بحكم عدلين به احتذاء

بمثل ما قتل من أنعام أو قيمة الصيد من الطعام

أو عوض ذلك من الصيام بعدد الأمداد من أيام

وإن يكن كسر لمد يعرض فصم له يوما فلا يبعض

وقطع ما ينبت في الحرام سوى السنا وادخر كلامي

صيد المدينة على تحديد شجرها بريد في بريد

جابر محظور له أشياء هدي وفدية كذا الجزاء

سوى نكاح جبره لا يلزم وكن بالإستغفار ممن يعزم

ترفه ثم إزالة أذى يوجب لكل منهما نوع فدى

وهي أن تنسك شاة من غنم أو ستة بدله إذا أطعم

من المساكين لكل واحد مدان أو صوم ثلاثة زد

والحكم في الجزاء قد تقدما ببيانه إن كنت ممن علما

والهدي في النقص بحج واجب أو عمرة بتركه لواجب

أو المقدمات للجماع والمذي حاصل بلا نزاع

كذا إذا أمنى بغير فكر والوطء قبل حلقه للشعر

وفي الفساد والتمتع وفي قران أو فوات ذا فلتعرف

ووطئه بعد إفاضة إذا أخر جمرة عن ذلك خذا

كذا إذا وطئ قبل حلقه بعد إفاضة فهديا يلقه

إن جعل النسك فيهما هديا فأجره في الحكم فيه جريا

يجمع فيه بين حل وحرام بمكة يذبح شرط ملتزم

أو في منى بشرط أن يوقفه بعرفات عند من عرفه

مكروه ضد سنة ومندوب فاجتنبه تفز بالمطلوب

ومثل ذاك شده بعضده نفقة له كذا بفخذه

وكب وجهه على وساد والنهي عنه بالعموم باد

ولبس مصبوغ بغير طيب لمقتدي به من المرهوب

وشمك الطيب المذكر كذاك حجامة ظلت دماء أعداك

جلوس بالمكان فيه طيب وحمله فإنه مريب

وغمس رأس بعده تجفيف فحاذرن فإنه مخيف

من ذاك أن تنظر في المرءات خشية أن تصلح من أشعات

ولبس مرأة قباء مطلقا فحصل وقيدن وحققا

الإحرام بالحج أو القران قبل الزمان وكذا المكان

وإن ترد ترتيبه فاستمع وارعني سمعك للسرد وع

أول ما يفعل في الميقات عن قادة أئمة ثقات

غسل وتنظيف ولبس نعلين وأزرة ردا صلاة ركعتين

قراءة بالكافرون والإخلاص وفقت للصدق وحسن الاخلاص

تلبيدك الوفرة بالغاسول والصمغ من قبل من المنقول

وقلد الهدي مع الاشعار ولا يكن من الجلال عار

تقليده تعليق شيء في العنق لبقر لا غنم أو الأنق

الأفضل أن يفتل شيئا مما تنبته الأرض عليه وسما

واستحضر نية ما تحرم به عند التوجه لقصد مطلبه

أفضلها الافراد عند مالك عليه مغفرة خير مالك

وذاك أن تحرم بالحج فإن أتممته فأت بعمرة تسن

وإن ترد حجك بالتمتع فافعل كما أصفه لك وع

فأت بعمرة على الكمال أحرم بحجك على التوال

بشرط أن تكون قد حللت بأشهر الحج الذي نويت

ثم القران اقرن بحج عمرة صحيحة وقدمنها نية

أو اردف حجك من قبل الطواف وبعده كراهة بها اتصف

وبعد ركعتين للطواف قد منعت كيفية الارداف

وقل إذا مشيت أو ركبت تلبية الرسول إذ أجبت

مع التوسط في ذكرها وفي رفعك للصوت وليس بالخفي

صفة ذكرها كما تقدما بيانه حتى تصل الحرم

واترك إذا تلبية واستقبل البيت بالغير فلا تحتفل

وليغتسل بذي طوى لذا الطواف من غير ذلك حاذرا مما يخاف

وادخل نهارا من كدا الثنية أمام مكة بقصد نية

باب بني شيبة منه فادخل واقصد إلى الحجر ثم قبل

بوضع فيك ثم إن لم تقدر فبيد والعود والتكبر

كذا اليماني استلمه باليد في كل شوط ما فعلت أعد

وليطف سبعة بالبيت طواف قادم بغير ريث

يرمل في ثلاثة من أول الأشواط ليس غير كل رجل

شروطه طهارة من الحدث وستر عورة طهارة الخبث

وكونه ولاء لا تماري وجعلك البيت عن اليسار

بداخل المسجد عن شذروان يخرج كل بدن في الدوران

وستة من أذرع من حجر وركعتا الطواف بعد تجري

ويستحب فعلها خلف المقام ثم دعاء بعدها بالملتزم

وعد إلى الحجر للتقبيل واخرج والى للصفا الجليل

من بابه وارق عليه للدعا مستقبلا لبيت الله خاضعا

ثم انحدر ملازما للذكر واقصد إلى المروة ذات اليسر

وخب في بطن المسيل خببا وارق على المروة نلت الأربا

وافعل كما يفعل في أعلا الصفا من الوقوف والدعا أهل الصفا

تفعل ذلك مرار سبعا المشي مرة كذاك الرجعى

أربع وقفات على الصفا تقف ومثله بمروة ولتنصرف

صحته وقوعه بعد طواف صح وفرضيته فيها خلاف

مع شروط للصلاة الممكنة (أكرم ببقعة علت في الأمكنة)

وعد إلى تلاوة التلبية إلى رواح مصلى عرفة

فإن يكن ثامن يوم النحر فاخرج إلى منى تفز بالدخر

وبت بها وبعده تقدم إلى مصلى عرفات تكرم

واجمع بها الظهرين قصرا واصعد إلى الوقوف للغروب تسعد

بشرط ادراك لجزء الليل عوفيت من ضر لذا يا خل

وادفع لمزدلفة مع الإمام ومر بين المأزمين لا ازدحام

في حط رحلك كمال المأرب واجمع عشا مقصرا للمغرب

وبت بها في طاعة الإله ولا تكن عن ذكره بالساهي

وصل صبحك مع الإمام وغلس للمشعر الحرام

تقف للدعاء للإسفار وسر كما أتيت إلى الجمار

ولقطها أولى من المزدلفة ويرمينها برمي خذفة

بحجر مثل حصاة الخذف كالفول فارم آمنا من خوف

اعني بها عقبة بها يحل من كل شيء محرم إلا ما قل

الصيد والنساء ثم الطيب والنحر والحلق به تطيب

ثم ارجعن لمكة في نسق وطف إفاضة وصل ما بقي

وصل ركعتين للقيوم واسع إذا لم تسع في القدوم

ثم ارجعن إلى منى بفور وصل عندها صلاة الظهر

وبت بها لياليا ثلاثا أو ليلتين إن تشا انبعاثا

في كل يوم بعدها ترمي الجمار أولى ووسطى عقبة ولا تمار

ثان وثالث هما ورابع ليوم نحرك الأضحى يا رافع

في كل جمرة بسبع حصيات مثل حصا الخذف ولاء نقيات

تقف للدعاء إثر الأوليين لا بعد عقبة وسر من دون مين

بقدر ما تسرع في قراءتك بقرة مع إظهار فاقتك

قبل صلاة الظهر من بعد الزوال لرمي ذي الجمار وقت للكمال

والرمي من قبل الزوال باطل وبعد إن صلى الكمال عاطل

ومن تعجل فلا يبيت قبل غروب ثالث يفوت

إن غربت عليه شمس لزمه رمي جمار رابع قد دهمه

والعود أحمد لبيت الله ولا تكن عن أبطح باللاهي

وصل فيه إن تشأ تقربا ظهرا وعصرا وعشا ومغربا

وادخل إلى مكة ليلا تصب بما ذكرت لك سنة النبي

ولازم البيت وفعل الطاعة والصف والصلاة والجماعة

بأدب سكينة وقار معظما لحرم الغفار

وعمرة كالحج إن لم تقرن فأت بها من بعد حج تزن

من الجعرانة أو تنعيم فأت بها وفزت بالنعيم

أحرم لها كالحج واسع وطف واحلق وقد تمت بلا تكلف

وإن ترد حل عصى التسيار فطف مودعا لبيت البار

واخرج موجها إلى صوب السفر ولتحمد الله على نيل الظفر

فإن تقم بعده بعض يوم بطل حكم وأعد بالعزم

ومن كدى اخرج بضم الكاف بعزم صادق وقلب صاف

وسر إلى سر الوجود الهادي بجد سير تحظ بالمراد

مكبرا حيث علوت شرفا مصليا على الرسول المصطفى

حتى إذا الى المدينة وصل والفوز بذاك الجوار قد حصل

فينبغي الغسل مع التطييب تحسين هيئة من المطلوب

صلاة ركعتين من قبل الدخول وليمش راجلا إلى خير رسول

إن دخل المسجد حيى بالركوع إن كان في وقت جواز يا خضوع

أو يقصد القبر الشريف في الأزل المصطفى لما من الوحي نزل

خيرة خلق الله بالإطلاق المجتبى لحضرة الخلاق

مستقبلا له ولا يلتصق به ولا يطف ولا يعتنق

منكس الرأس لما جناه لنفسه من الخطا أدناه

متصفا بالذل والانكسار مستحضرا للفقر والاضطرار

وأنه بين يديه واقف حرمته ميتا كحي عارف

إذا دعاه فلينادي بالخضوع بأدب وبالوقار والخشوع

معتقدا أنه باب الله من غير لبس لا ولا اشتباه

فلا سبيل للدخول إلا منه عطاء ربنا وفضلا

يا سيدي يا سندي يا أملي يا ثقتي في فاقتي أنت الولي

هذا العبيد قد أتاك راجيا مما جنا من الخنا وباكيا

قد أثقلت عاتقه ذنوب وأوهن القلب لها كروب

فلم يدع من اقتراف ذنب شيئا ولا من اكتساب عيب

ولم يجد لدائه من نافع سواك يا ذخيرتي يا شافع

وعمره مضى وقد تولى في غير ما يرضي وأنت أولى

للذب عن عبدك والدفاع فليس غيرك له يراعي

ملتجئا إلى ملاذ للورى ناء المدى في مجدك سامي الذرى

إذا تمسك امرؤا بذيله في وحل فلا ينني عن نشله

أنت الذي أنعشتنا من بعدما كان الضلال في البسيط عمما

فكلنا لفضله عتيق ياعمر الفاروق يا عتيق

لنا اشفعا عند النبي المجتبى وأسمعانا مرحبا فمرحبا

فإنني عبد له حقيق عند الكرام يكرم الرقيق

بجاه جبريل وما به نزل عليه نحن عاكفون لم نزل

والآل والأولاد والأزواج فاطمة ذات السنا الوهاج

وصاحبيك من عموم الناس كذاك حمزة مع العباس

وابن عمك أبي الغصنين سيدنا الحسن والحسين

والصحب طرا وخصوصا عشرة أكرم برفقة كرام بررة

لا تحرمن عبدا أتاك طامعا من جاهك السامي ملاذا شافعا

من أرض مغرب غريب الدار ذا فاقة وكثرة انكسار

مؤملا منك أخير مأمول ومطلب الانتاج من كل رسول

علمنا به عملنا موصول وحجنا البيت له قبول

وتوبة خالصة نصوحا والبعد عن شهوتنا نزوحا

والإشتغال عن غير بالله وآمرا من نفسنا ونساه

وإن أكن من الشقا بوسم لأجل عصياني وكثر جرم

فبدلن شقاوتي سعادة وعوضن حرماني بالإفادة

فأنت إن أقسمت لا تحنث والله يمحو ما يشاء ويثبت

والعبد بين الله و الرسول فكيف يرجع بغير سول

ياسيدي فلن يضيق عني جاهك في يوم المعاد إني

بين العشائر بهذا الوسم ناديت إني منكم في حرم

ومثلكم ذمته لا تخفر وجاهكم عند الإله أكبر

يا ربنا أشكو إليك همي وحزني وكربتي وغمي

برفقتي مع فرقة قد نغصوا عيش الهنا ظل شبابي قلصوا

لاقيتهم والفرع من شبيبتي أسود غربيب فأفنوا قوتي

في خدمة أكثر ما جنيت بها على نفسي بما سعيت

فلم يزل يبتزني من عمري غض شبابي وفتي أمري

حتى لقد ابيض ليل مظلم من هامتي وهو نذير معلم

يظن ذا العبد الذي يروع من لم يكن في قربه يضيع

يعتد ما جره قدح خاسر من قربه والوجه وجه باسر

وما دري بأنه أفاتني من عمري أضعاف ما أفادني

فاغنني اللهم يا إلهي عنه بفضلك به أباهي

واكفنيه اللهم أنت الكافي فحاله ليس عليك خافي

وكل ما أضمر لي من شر فعجزنه ربنا بسر

الاسم الأعظم الجليل القدر وماله من سطوة أو قهر

وبالضحى وعلق والقدر والمصطفى صاحب هذا القبر

وبجميع سور القرآن وما حوت من قاطع البرهان

حتى يرى لعجزه مبهوتا كأنه من حجر منحوتا

أخرص لسانه وكف يده وعزمه انقض واردد كيده

وكل من يريدنا بشره فرده ياربنا في نحره

واكفني اللهم ما في الغيب من تعب ومحنة وعيب

وأرزقني اللهم رزقا واسعا وكن بقوتك عني دافعا

واختم لنا الختم الذي ترضاه موفقا لنا لمقتضاه

مومنا لنا من الأكدار مدة مكثنا بهذي الدار

مسهلا لسكرات الموت موسعا في القبر يا ذا الغوث

مريحنا من تعب في المحشر موردنا من سلسبيل الكوثر

(محاسبنا حسابك اليسير معاملا بفضلك الكبير)

موجرنا يارب من النار واجعل لنا في رفقة المختار

في جنة الفردوس مع زيادة أكرم بها مزية مفادة

وصل يارب على الزكي محمد المصطفى المكي

وآله وصحبه الأعلام ما ختمت صلاة بالسلام

أيا مصطفى حقق رجائي لديكم فعبدكم هذا بحبكم اشتهر

فها أنذا رق أسير هواكم ولا أربا لي فكاك ولاوطر

وليس له يوم المعاد وسيلة سواكم شفيعا ملجأ ذلك المحشر

فكن لي جارا يوم لا جار نافع ولا غيركم في ذلك اليوم من وزر

فكل مديح للورى طاب نشره لحقكم نزر قليل ومحتقر

فماذا شبا الأقلام بالحبر ترتوي تروم اجتيابا في مجال به خطر

فقد كل في أوصافه كل مقول وقد ضل في أرجائه عارف خبر

فبعد ثناء الله لابعده ثنا عليكم، قديما حسبنا العي والحصر

عليك سلام الله ما ذر شارق وما هبت روح في الرياض مع السحر

وقلت في مدح الأمير مولاي علي لما عزم على الحج وقد كان مقيما معه بقصر الإمارة بفاس الجديد:

رشاد صبرنا فيه خلال مقيم والوصال به خبال

فدمع في صفحة الخد دمعي يؤرخ كاتبا مالا يزال

تقضى تارة عند اتصال غداة البين ما شاء انفصال

...

مقامات خرق العادات في اختلاف الرعادات

على كتمان الشهادات لقبض الرشى المعتادات

فمن تمام هذه الحسنة ذات المآثر المستحسنة، أننا منينا في هذه الوجهة المباركة التي أحرزت المناقب الحميدة بلا مشاركة، بمرافقة بعض من انتمى إلى العدالة، وتسربل ببهتان يفتريه ويتبع جداله، ويتقلب مع الإدالة، فإن دعي إلى حق أعرض وولى نزاله إلى أن تسنى له الجعالة، ويقال له هذا له، يتظاهرون بالزهد وهم أشد الناس حرصا، ومن المحاجم للدم مصا، قد لبسوا من الناموس جلبابا، يزخرفون أقاويلهم فيجدها من يغتر بها سرابا، فملؤوا من أباطيلهم وخدعهم صحائف وكتابا، لا يسمعون في هوى أنفسهم ملاما ولا عتابا، كأنهم لايرجون من الله حسابا وكانوا ممن ربت نفسه دنيه، في عيشة غير مرضية، قد دنسوا ما انتسبوا إليه من هذه الخطة، بهممهم السافلة المنحطة، واقتحام كل مصيبة وورطة. فقد كانت خطة العدالة وظيفة الأخيار، الأتقياء الأبرار، بهم تستباح الفروج، وتملك الأرضين والفدادين، والأجنة والمروج، والبنايات المشيدات والبروج، وعليهم المدار في كل شيء في الدنيا يدور ويروج،

مع ما يتفق لبعضهم من مشاق التعبير، وتنميق الخطب والتعبير وأنا بذلك خبير، علم مشهور، وحياء موفور، وصيت في الحواضر والبوادي مذكور.

اتخذوا أماكنهم أسرابا، ولبسوا الحيا جلبابا، فلما تولى الدهر وأبدى انصرافه، ولكل شيء آفة، أعقب من تقدم من أولائك الأخيار، هؤلاء الحمر الأعيار، قد دنستهم هذه الشرذمة التي هي مفلسة من الخير معدمة، فخالطهم من خبثهم ما خلط.

أو ما ترى المحبوب والمكروه لذا في نمط
كالشوك يبدو في الغصون مع الجني الملتقط

فقد رأيت أشيبهم على الشهادات يدور، بين الفناديق والدور، بالله خبرني ما يرد هذا عن شهادة الزور، وهو يتملق بين دكاكين الباعة، مجهول الفرع، موصوم الأبوة، فكان ظهوره من أشراط الساعة، ولو كان يفعل ذلك في بلاد الإسلام لهان المصاب وساغ الصاب. لكن لما كنا في جزيرة مالطة كان يفعل ذلك والله على ما نقول شاهد والملائك، فإن قلت: تلك بلاد النصارى وكيف يرتضون شهادة المسلم؟ أقول أنه يرد عليهم تجار المسلمين بقصد البيع والشراء فتحدث أقضية ومعاملات مع النصارى فيشهد بذلك النصارى عليهم لعلمهم أن شهادتهم لا تجوز على المسلمين، شنشنة عميت بها بصائرهم فلا يبالي كل بما يصدر منه

فتجده موارد الذل والهوان يرد ويصدر، فقد باؤوا بالسفاهة وانطماس البصيرة، وصرفوا وجوههم عن قبلة المكارم الأثيرة، وأهانوا جميع من في قلبه مثقال حبة من إيمان. ولاسيما من انتسب إلى هذه الخلافة التي تقادم صيتها على الأزمان، والله يجازي سيدنا ومولانا أمير المومنين عن الإسلام خيرا، فمثله من ملك، فقد سلك من الحزم والتيقظ ما سلك جرب الأمور بذهن رائق، وفي التجريب علم الحقائق، فقد خرج التوقيع بأمره المطاع، وأمر أن يفشى ويذاع، ويذكر في الأندية ويشاع: فإنه إذا تزوج رجل امرأة وتراكنا فليظهر ذلك علنا، ولا حاجة إلى أولائك الذين تسموا بالعدول، لما علم أنهم عن الحق عدول، لما ثبت عنده من دسائسهم وقبح خسائسهم. فانظر كيف تعدى شؤمهم إلى هؤلاء الأبرار، والبلاء يعم الأشرار والأخيار.

ولما قوي عزم سيدنا على بعثنا إلى فداء الأسرى، من أيدي الأعداء النصارى تخير أربعة من الطلبة وانتقى كل واحد من بلده وجلبه، ممن تظنى لناموسه وخدعه كماله، من خدعنا بالله انخدعنا له، وهم: عبد الكريم بن قريش والتهامي البناي ومحمد الحير والطيب بن جلول، وحسب أيده الله من حسن سريرته أنه على كتفه منهم صقر أخيل ذو ألوان، فلما أصبح وجده كروان، وأسبغ عليهم من العطاء، ووعدهم أن يصل ديارهم في غيبتهم فأنجز ما وعد وما أبطأ. بعثهم معنا بقصد إن يسر الله في الفداء من يد العدا، نوجه مع كل واحد منهم طائفة حتى يوصلها إلى أماكنها آمنة بعد أن كانت خائفة، فأصبحت معي إلى مربعي، واتخذتهم زينة مجمعي وكنت أراهم ضالتي المنشودة، وأمنيتي المقصودة، وتيسر جمعهم كرامة معدودة.

فلما وصلنا مالطة وأردت الشروع في فداء الأسارى أردت أن نجعله بالعدول دفعا للكلام الحاسد العدول، فطلبت من القوم أن يحضروا معنا الفداء، ويكتبوا بكل من يفدى من الأسارى وثيقة، على ما يشاهدونه حقيقة، وتخيلت أنهم يتسابقون إلى ذلك، ويبتغون ما عند الله من الثواب هنالك، لجهلي بأحوالهم المموهة وأطماعهم المشوهة، ولم أدر أنهم ممن يرغب في الشك، ويبتغون الرشى على الشهادات والحكم وأنهم من يقنع في قبض الرشى، ولو بقفة أو وشي، كعادتهم في تصيير مال الأحباس، حتى صار الكناس بما يختلسون في عداد الناس، فقدموا علي متظاهرين بنصيحة غاش، ولحاهم من الخيانة ذات ارتعاش.

فتقدم للكلام عبد الكريم بل عدو الكريم تحزب الأحزاب، الذي ماتت على يده لشقاوته -عاذا بالله- رقاب، وباء بغضب من الله على ذلك وخسر وخاب، كقضية الحاج محمد تميم، قائد تطوان، فهي مشهورة معروفة عند أهل البلد مذكورة، كان ممن أبرم حبل الحيلة في قتله غيلة، وهو محرم في صلاة الجمعة بين يدي الله واقف، غير مستحي -عدو الله- ولا خائف، فكان خليفة غلام المغيرة، إذ سعايته أضحت على الأرواح مغيرة، وقال: أنه نعما فعلت، وحبذا أنت لو اتبعت، وقلت له: وما ذلك؟ فخبرنا بما هنالك؟

فقال: أرى أن نحضر الآن هذا الفداء الأجل، والعقد المبجل، ونحصي ما تدفع في ذلك من المال ولا نكتب رسم شهاداته في الحال حتى يتم الفداء وقيت العدا، ونكون على الجميع شهداء، فاشرأب قلبي، وأنبأني لبي أنهم من اطلع على سوء جريرتهم، وقبيح سريرتهم، وقال:

حذار حذار من كل غادر ختار، فإن القوم قد عزموا، على أنهم في آخر العمل شهادتهم يكتموا، حتى تؤدي لهم ما يطلبون أو يريدون، أو تراهم عن الحق يميلون ويحيدون. فقلت لهم: كلا، لقد اتضح الأمر وجلا، وبعد اطلاعي على حقيقة غدركم، واختباري لكم وسبركم، امتثل قول الله تعالى: {أو آخران من غيركم} فانظروا من تخدعون، وعلى من بسفاسطكم الحفرة، وحللتم من الشقاء بأقبح منزل، وأصبحتم عن كتاب الله عز وجل بمعزل، قال تبارك وتعالى {يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين}، وقال تعالى {يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى}، وقال تعالى {ومن يكتمها فإنه آثم قلبه}. كفى بكم إثما، إن وسعتم شهادة الله كتما.

ولله در القائل:

أعوذ بالله من أناس تشيخوا قبل أن يشيخوا

احدودبوا وانحنوا رياء احذرهم إنهم فخوخ

ثم بعثت إلى الطاغية وطلبت منه أن يبعث إلي من حجابه وسدنة بابه من يقف على تصيير هذا المال وحسابه، فورد علي من عنده المحصون، وأظهر كل من الحزم الوقوف مابه محياه يصون، يمتثلون ما أمرهم به الطاغية ولا يعصون.

فحملهم مابهم من الطمع، والحرص والهلع، على أن طلبوا يرسمون شهاداتهم، معللين أنفسهم بما امتزج من الطمع بعاداتهم، فلم يحصلوا على طائل، وحال بينهم وبين ما يشتهون حائل، فلما أشرفوا على التمام وآنسوا أنهم قد يئسوا أفصح بعضهم بكتمان الشهادة على باقي الرسوم، وظهر من باطنه المكتوم، عمل السفهاء المارقين {وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين} .

إن المريب يتبع المريبا كما رأيت الذيب يتلو الذيبا

وطالما نبهتهم عسى أن يكونوا بالحق لافظين {قالوا سواء علينا أو عظت أم لم تكن من الواعظين} ، وكتمان الشهادة كما علمت رأس الفجور، وأقبح من شهادة الزور، فرفضتهم ولفظتهم، وجعلت أمرهم دبر أذني، وقلت لهم: بحول الله فجوركم لا يغني، ثم تماديت على مابقي من العمل، وتركتهم من جملة الهمل. على أن سيدنا نصره الله ما بعثهم حتى رضخ لهم من فضله الوافر على الحافر، وأعطاهم عطاء جزلا ظنهم لذلك أهلا، وما درى أنهم ممن شب وشاب في ذميم التخلق، حتى استعملوا على الصدقة المبعوثة للفداء هذا التملق، وإنهم إن لم يجدوا ما

يحوصلون ويلقطون من رحمة الله هم يقطنون {ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن اعطوا منها رضوا وإن لم يعطو منها إذا هم يسخطون} نفس ذميمة، ودناءة جسيمة وأحوال غير مستقيمة، قد بلاني الله بمرافقتهم فلم أجد إلى الخلاص منهم من سبيل أقبح بهم من فئة ومن قبيل، ولا غيبة في هذا المقدار من التنبيه على كل فاجر كتوم للشهادة ختار غدار، بزخاريف ناموسه للمسلمين غدار، تذكرة تبقى على مر الزمان وترداده، تنبيها على ذوي الناموس، بل وعلى كل فرد من أفراده، وقد استثني من الغيبة مواضع تجوز فيها، وجمعها بعضهم في بيت واحد مستوفيها، فقال:

تظلم واستفت، حذر وعرف بدعة فسقا مجاهر

حاصله تقبلهم في شهاداتهم التي بأيدينا تشهد لهم أو عليهم، وحالهم في ذلك مغني عن سؤالهم.

المقامة الأولى: في التنويه بابن جلول وعلو همته على منصة تكرمته

فمن علو نفسه، أنه لبس نعلا سوداء قبل سفرنا كانت بالية، وكانت غيبتنا سبعة عشر شهرا برا وبحرا، وردها بعينها لبلاده، أظنه يبقها من بعده لأولاده، الشك في أنه ورثها من أحد أجداده، فإن قلت: مامعنى قولك في النعل المذكورة سوداء ثم وصفتها ببالية، لأن سوداء تغني عنها لأنها لاتكون سوداء إلا إذا كانت بالية؟، قلت: ذلك في نعال المسلمين فأما بني إسرائيل فقد رأيتهم يصبغونها بالسواد وهي جديدة فافهم، فلو اقتصرنا على لفظة سوداء لتوهم من لايعرف حقيقته أنها سوداء جديدة، وذلك شعار لهم يعذرون بتركه، ولم تكن كذلك فقد كانت سوداء بالية، وكساء خشن أصفر من قدمه، قد آيس من عدمه، أعدهما للتجمل في بر النصارى إذا حضر الأندية والمحافل، يبرز في حلته تلك رابل. ولو ترى إذ جعل النصارى للإكرام مهرجانا ومآدبا، واحضروا أطعمة ومشاربا، وهو لنفاضة الموائد لاقط، وعليها مثل الذباب ساقط، يلفه ويتأبطه عليه من الله سخط، فقد دنس جميع من آمن بالحق وتشهد في ذلك المشهد، وكنت أوجعه لوما على ذلك وعتابا، عسى أن نرى منه إلى الصواب متابا، فلم تنفع فيه الذكرى سرا ولا جهرا، بل استمر على مهانته متوشحا رذائل الأمور متقلدا سفاهاتها، كما قالت العامة: (عيبت أم الأحمق ما تعض شافتها)، فيحملني القلق والخجل على أن أعيد الذكرى عليه، فما ينفع شيء لديه، وأقول له: لما بعثك سيدنا أيده الله صرت

مضافا إليه. فكل ما تفعل من خير أو غيره محسوب عليه، وهذه بلاد الأعادي، فتجمل بما من الله عليك على يد مولانا من النعم والأيادي:

لقد أسمعت لو ناديت حيا   ولكن لاحياة لمن تنادي

ولكن ما تستر وما توارى، كما قالت العامة: (حوت واحد ينتن الشواري)، فإنه ينبغي لمن يسلك بلاد النصارى أن يكون ذا نفس أبية، في الرفاهية رابية، وهمة عالية، ومروءة قالية، حتى لا يلتفت إلى ما يموهون به أولائك النصارى من زخاريفهم فتا من غير تنيا، بل ومع ذلك تكون يده هي العليا، ويعم عطاؤه الأكابر والأصاغر، ويترك كل فم ولسان بمدحه فاغر، ويمر أفعاله وأقواله بالقوانين، ويربط مع من علا أو انحط، ويعتبر في ملاقاته مع الناس المقادر والمراتب، والدرجات والمناصب، يعطي من كل ذي حق حقه، حتى لايزدري بكثير، ولا يعطي صغيرا أكثر مما استحقه، وإلا فليلزم مكانه، ولايتعدى أوطانه، أو ينسبونه إلى الهمل، ولا عبرة تبقى به ولا عمل، ويتخذونه سخرة وأضحوكة، وطريقهم في ذلك معروفة ومسلوكة. وقلما يتفق ذلك إلا في من خدم الملوك، وسلك من التحلي باصطناعهم وإبائهم أحسن سلوك، جرت على يده التوقيعات والتراسل، معتبرا في أحواله التناسب والتشاكل، جرى في مهماتها من الشباب إلى الكهولة، سواء الأمور لكثرة دورانها على يده معروفة كانت أو مجهولة، وكان ممن

خرجته الدول، وخبر من مضى من الأول، مضى عمره في البعوث المجهزة، والفرص المنتهزة، وقصص تتلى وترفع، وتوسط فيما عند الله إن شاء الله ينفع، والسعي فيما أمكنه من مصالح المسلمين في موازرة خدمة أمير المؤمنين. وكيف يتخلق بهذا التخلق، من شب وشاب في التملق، فكان أول أمره عطار الباديات، يتسابق إليها ببردان عاديات، حتى نهشت آليته لتخلله الخيام كلاب عاديات، فأعيى الطبيب ثقبها النافذ، وعلاج الكلب الزائد، ومن شك فليشاهد، ومن قبل ذلك كان الحلاجين، زمانا إلى حين، ولما ترقى به الحال صار في الحاضرة من العطارين، الذين يبيعون أدوية البيطارين، لا من أصحاب العطر الثمين، وكثيرا ما وبخه وعنفه لخيانته مقدم السوق المعروف (بالأمين)، فلما خلت الديار، وانقرضت الجهابذة الأخيار، ونقدة العلم الذين ما كان يدخل زمرتهم إلا من جرب على عيار، تدارك هذا الفروج، ورام أن يموج في أسواق العلم على بهرجته ويروج، وأن يجول من جهالته على حمار، مكان الفوارس في ذلك المضمار، فتعامى الدهر له، فتزبب هذا الجرم قبل أن يتعنب بل وهو حصرم، ملتفا في عباءة كأنما أراد لتعريه أن يحرم، وفتح دكانا للتوثيق، وسلك في عمله فيها أخس طريق، ينادي على الخصوم، ويشهد بما لم يعلم كأنه عنده مقرر معلوم، ومن أجل ذلك جنح إليه هؤلاء المصيرون أوقاف المسجد فهو لهم بشهادته في جميع مايردون منه مساعد ومنجد، وأمره كان غائبا عني، والبحث فيه من غير ضرورة لايغني، إلى أن جمعنا وإياه السفر، فكشف عن محيا فاجر وأسفر، وآخر ما انتهى إليه أمره من التلاعب بالشهادة والتهاون، والتعاضد على

الفجور والزور والتعاون، انه لما دعي إلى أداء ما لديه فيما بقي من الشهادات أخذ يتعلل ويقول على لغة بني النظير أسلافه أنه به من البرد رعادات، وبسبب ذلك سميتها "خرق العادات في اختلاف الرعادات على كتمان الشهادات لقبض الرشى المعتادات" ،

فتأمل عافاني الله وإياك حالته، وكيف خان أمانته، فهل رحمك الله يجب عليه أداء الشهادة بعد أن سئلها على الحاجة إليها، وهل كاتم الشهادة المصرح بذلك لا تجوز عدالته ولا أمانته، فإن من كان عدلا حقا لايبالي في أدائها مخلوقا، قال تعالى {وأقيموا الشهادة لله} وقال تعالى {ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله} ، قال المفسرون: أي لا أحد أظلم منه وهم اليهود كتموا شهادة في التوراة لإبراهيم بالحنيفة، قبحهم الله وقبح ما جاؤوا به من الجحود، وقبح من اهتدى بهم وجاء بمثل ما جاؤوا به، لا كما قيل: شنشنة أعرفها من أخزم، الطير من مرك، والعود من سرك، وقلت في المعنى :

.... إذا كانت نبت العيدان أن تخيرها

وجعلتها مقامات وقد انتهت المقامة الأولى.

المقامة الثانية: المقامة الصفعية

أخبرني من يعتمد عليه، ويرجع في الأخبار إليه، أن الفقيه الأجل، العالم المبجل، القاضي الأعدل، الماجد الأفضل، قاضي سجلماسة محمد بن سعيد، قدم في بعض وفاداته على سيدنا المنصور، ما أدري في موسم أو عيد. فولاه سيدنا يده الله لمعرفته بمكانته قضاء رباط الفتح مدة مقامه، مفوضا له تنفيذ أحكامه. وقد علمت أن أمر القاضي مبني على الشهود، بل في جميع الملل حتى عند اليهود. فيجب على من ولاه الله القضاء أن يختار للمسلمين من يعتمد عليه في دمائهم، وأموالهم، وضبط أفعالهم وأقوالهم. وكان من فطنة هذا القاضي، وممارسته للشهود والمتقاضي، أن أمعن النظر في عدوله، دفعا لكلام عدوله، ليميز منهم الخبيث من الطيب، فميز هذا الخبيث الذي اسمه معكوس الطيب. فوجده يتلون في شهادته كالحرباء، إلا إذا واساه المشهود له وحبا. فزجره عن ذلك فما انزجر. بل زاد في ضلاله فتعدى وفجر. فلما أعياه أمره، وانكشف للورى سره، ولم يزد أمره إلا ظهورا، وبهتانا وفجورا -ومن لم يجعل الله له نورا- أحضره مناديه بعد أن أجمع لذلك قاضي الخلق ودانيه. واستنزل القاضي في الحكم عليه آراء القوم، بعد أن أولاه كل توبيخ وعتاب ولوم، وقال لهم: ما جزاء هذا اللعين الذي ماء وجهه آسن غير معين، وهو على كل فجور وزور معاضد ومعين؟ فوقع الاتفاق من الملا، ممن انحط وعلا، وأجابوا بلسان واحد، وجواب مترادف متوارد: جزاؤه الصفع في القفا، عقوبة من تقدم

من آبائه وسلفا. فأمر القاضي -وفقه الله- أن يطاف على من يحسن ذلك في العدوتين

وأجلبوا من الناحيتين. وأحضروا بين يدي القاضي وقوفا ، واجتمعت الخلائق صفوفا صفوفا ،

جاوزت الوفا. وحسروا عن أيديهم وشمروا لما به يومروا ، فقال لهم القاضي: أفيكم لفن الصفع

عرفا؟ فقالوا: إي ومن يعلم ما ظهر وما خفي، وجعل محل الصفع القفا. فقال لهم: أيديكم ارفعوا،

وهذا النذل اصفعوا. وليكن صفعا سويا، معتدلا متساويا. واعلموا أن من أخطأ أثر المعلم وما

قفاه فليبشر قفاه.

فتقدم أكبرهم وأعرفهم بذلك صنعة ، وتلاه أصحابه السبعة ، وجعلوا يصفعونه صفعا ، وترا

وشفعا حتى ضرط وركع ، وكاد أن يسلح لولا أنه رفع. ولم يؤثر فيه ذلك فبقي سالكا أقبح

المسالك. فقد وقعت نازلة بين رجل يقال له (طرنيش) وبين أحد أولاد بناني بالرباط. وكان

من شهود أحد الخصمين الفقيه الأجل أبو عبد الله محمد بن الفقيه البركة شيخ بلاده، وعلم الهداية

بين عباده أبي العباس أحمد العربي رحمه الله ، وهو من تلك البلد بمنزلة الروح من الجسد ،

فقصد أحد الخصمين شيخنا المشهور بالخنا، وطلب منه أن يطعن في هذا الفقيه الذي جماعة أسلافه

بالعدالة موصوفة. فجرحه -عدو الله- بجهالة معروفة. ثم سعى ذلك الخصم المدعي ، في إذاية

ذلك الفقيه ما سعى. فاجتمعت للفتك بذلك الظالم أهل البلد ، الوالد منهم

والولد، وقالوا له: ما حملك ياسفيه، على أن جرحت الفقيه؟ فاسترجع، ثم في شهادته رجع،

وقال: غرني الطمع، والحرص والهلع، وإنه صاحبي أردت أن نحمي ذماره وإن النفس لأمارة.

ورجع في شهادته، كما هو معروف من عادته. ورفعت النازلة إلى سيدنا المنصور بالله ، وأمر حاكم البلد أن يشخص إليه هذا الفاجر الذي في شهادته يتقلب، ويقبض الرشى فيتحزب ويتألب، لينكل به ويبالغ في أدبه، حتى ينزجر به السفهاء أمثاله، وشيعته وآله. فوجه إلى المقام الأمامي خائفا يترقب، وما سوى النجاة يتطلب، فشغل سيدنا -أيده الله- عنه بما هو بصدده من مهم الأشغال، وقد كان عازما على الحركة والانتقال ، ورفع النازلة إلى قاضي حضرته ، وفضح عدو الله بين جماعته وأسرته. ومن حفر حفرة لأخيه وقع دونه في حفرته.

المقامة الثالثة:

المقامة الزيتية وتعرف بالصورية

لما كنا بنابل ، حضرة الطاغية والفئة الباغية ، حيث انتهت العمارة واجتمعت قواعد الكفر الذين لهم الاشارة. والإنسان في بلدهم على قدر ماعنده من المال يسوى، وبقدر ما يقل ماله ينحط ويهوى ، جهارا ونجوى. ولما قدر الله سفرنا لتلك البلاد كنت للاسلام والمسلمين عنوانا، واتخذت الله ظهيرا والملائكة أعوانا ، إذ المرسل عنوانه المرسل، وعما يقاسي من الكلف ومصادرة القوم لا تسل. فيتعين أن يتكلف بقدر كلفه وزيادة ، ودخولهم للدار ورؤيتها كبارا أو صغارا أمر مسلوك وعادة. وعلى ذلك يقيسون الباقي. ولا يمكن صدهم عن الدخول حتى لايرون فقد أعجز داؤهم الراقي. وعلى قدر مايرون من التوسعة تكون المنزلة من سمو وارتفاع أو انحطاط في ناحية منعزلة. فكنت أتكلف وأظهر من القراما المجازاة فيه على خالق شديد القوى. فأمرت خدام الدار من النصارى أن يوقدوا الشمع في جميع قببها ومقاعدها ورتبها . ومن جملة مساكنها بيت ابن جلول الطيب ، الذي أمطر عليه من سماء المذلة كل وابل وصيب. فكان كلما أوقد الخديم الشمعة يطفيها ، ثم في صندوقه يضعها ويخفيها. ويسترق الزيت من مصابيح الكنف والأبواب والقناديل، في مهانة تجتنبها الأراذيل. فصار الخديم يتلف زيت القناديل ويفقد ، من عدم السليط الموقد. ولم يدر صاحب هذه الفعال ،

الذي جزاؤه الصفع بالنعال. فجلس بالمرصاد ليقبض هذا السارق ، والخائن المارق. فسمعت بالدار ضجيجا ، وصياحا وعجيجا. فبعثت من يأتيني بالخبر على وجه الصحة ، وعلى من هذه الصيحة، بل أردت الفحص عن ذلك جهدي ، وأبدي في معرفة صاحب هذا الفعل ما عندي. فأحضرت جميع من معي من المسلمين صفا ، وقلت لهم: إن لم تبينوا عما تسألون عنه فقد سمتم أنفسكم خسفا. خبروني من هذا المارق الذي أمسى من دناءته للمصابيح طارقا ولزيتها سارقا؟ فنظر بعضهم بعضا يمنة وشأمة ، وقالوا: اصدعوا بالحق ولا تولوا أنفسكم كآبة ولا ملامة. ثم قالوا بلسان واحد وجواب متوارد: سارق الزيت لا يخفى ، فرائحته تنبيك عنه إذا تنكر واستخفى. وهذه الجماعة بين يديك مصفوفة ، ورائحة الزيت معروفة. فقلت لهم: لقد أنصفتم فيما وصفتم، وعرفتم بما عرفتم، وإن هذا لهو عين اليقين ونجاة للمتقين ، وفضيحة لسارقي الزيت المارقين. ثم أمرت من يتأمل الأصحاب ، ويشم الأثواب، حتى وصل إلى شيخنا المذكور الآتي بكل فعل منكور. فوجد ثوبه موسوما ، وخط الزيت بالشهادة على سرقته مكتوبا وموسوما. فقلت له: ما هذا الخزي المؤبد ، والعار الدائم المخلد؟ وكنت أتمنى أن ينفي عن نفسه ذلك ، ويأبى سلوكه تلك المناسك. فإذا به أمام ذلك الجمع اعترف ، بما اقترف، وقال: إن إيقاد الشمع من السرف. فهممت أن أحكم فيه بحكم القاضي ابن سعيد، وما كان عندي ببعيد، فردني عن ذلك بعض الحاضرين بعد أن كانوا لفضيحته ناظرين.

أخبرني من عني بخبره ، وتتبع عجره وبجره أن ذلك دأبه حيثما كان في المآدب. فتراه لفضالة الموائد جاذبا ، لا يصعب عليه مرام في سرعة الازدراد والانتقام. سخر له كل مطبوخ لينه وعاصيه وأطاعه منه دانيه وقاصيه. واستلاؤه على كل مسروق وإخفاءه ولو كان مثل المصباح ذا شروق، فهو إمام تلك الطريقة وفتاها ، وخطيب جمعها كلما أتاها. فطرح ونبذ ، وطرد بعدما جبذ. وخرج والزيت يتقاطر من أذياله ، قد سربله الهوان بسرباله. في مهانة لا يتوقف عليه غرض، ولا يعبأ به في مسنون ولا مفترض.

ومن سقوط نفسه ، ونحس نكسه ، أنه كان يجلس مكشوف العورة في طاق ، في هيئة رثة وثوب أخلاق. فيجتمع لرؤية فضيحته وكشف الأسواق ذات ارتفاع، ليشاهدها كل من اشترى وباع، من أخلاط الرعاع. وشاع خبرها في المدينة ، وصار النصارى يردون ويجتمعون لرؤيتها كيوم الزينة لغرابة ذلك في البلاد ، ويبقى فضيحة للمسلمين بين العباد. فاستعملت الحيلة في إنزالها وإلقائها. وأعطيت المصور حلوانا على أن عاهدني أن لا يعود إلى ما فعل سرا ولا إعلانا.

المقامة الرابعة:

المقامة الصليبية وتعرف بالمالطية

لما كنا بمالطة مجتمع الطغام، ومنبع الضلال، كان هذا اللئيم لا يستقر بقرار ولا يشتمل عليه منزل ولا دار. وكنت كثيرا ما أحضه أن يلزم مكانه ، وأن يكون ذا هيئة واستكانة، حذرا من تجاسر النصارى، ولا سيما إذا كانوا سكارى. فلم يزده التحذير إلا إغراء ، وتماديا على فعله واجتراء. فبقي يعمل على شاكلته، من مرافقته كل ذميم في الأسواق ومواكلته، يطؤه كل سفيه، لهيئته الدنية المعروفة فيه. يتخلل أسواق الخضر واللحوم مثل الحدأة على الجيف تحوم. حتى قيض الله له بعض أعياد النصارى يخرجون فيه للصليب ويجتمع لذلك البعيد والقريب ، الطاغية فمن دونه، يستقبلونه ويعبدونه. فما شعر في سياحته -الخبيث- حتى صادم جمع أهل التثليث، فبادر أن يفر، فعوجل وأحضر. وقيل له: ادخل الجمع ، وأظهر الطاعة والسمع. وللعصي في هامته لمع. فحمله ما به من الجبن والفرق ، ودناءة النفس كما تبين من الزيت التي سرق ، أن خرج من الدين ومرق، وسجد للصليب، وعلى ركبته برك، وما أدري أبقي موحدا أم شرك.

فوجب أن يقلى لله ويترك ، ويفرك مهما أمكن ويعرك. وسبوا الاسلام والمسلمين بسببه ، وبقبيح مكتسبه. قبح الله سعيه، وعجل نعيه وقطع حبله ولاكثر في المسلمين مثله.

ولم يؤثر فيه هذا الفعل الذي أبكى. فبقي مستمرا على مهانته في إذاية من انتمى إلى الاسلام وإهانته. فذهب النصارى ذات يوم بنصراني توجه عليه الحكم أن يموت خنقا لسبب ، ومعه الجلاوزة ليفعلوا به ما وجب. وحضر الرهبان ليذكروا من هو بصدد الموت بسبب الموت، وأن يموت على دينه قبل أن يفوت الفوت. وتبعهم من النصارى من لا خلاق له ، وصاحبنا الذي مهما كان أمرد ناسبه ولاق به. فبينما هم يسايرون القتيل ويذكرون ، ويتأملون في قتله ويفكرون، إذ أبصروا هذا الممقوت يقتفي أثرهم، ويلتقط خبرهم. فقالوا له: ما أتى بك إلينا، وأقدامك علينا؟ ولم دخلت زمرتنا ، حتى ترى موتتنا؟ والله لنرينك ما تكره قهرا، ولندخلنك معه لحدا واحدا وقبرا، حتى تتحدا بعثة ونشرا، فهدموا حصن الوقار عليه وفرعوه، وجلدوا به الأرض وصرعوه، وأكؤس الهوان جرعوه، ثم أخرجوه من جماعتهم وطردوه، ونفوه وأبعدوه، وقفوه من سفهائهم بجعالة وإجازة، من يرميه بحجارة، لولا أن تسلل منهم بعد محنته ، وكان كالسليك في عدوته، فاستحرم ببعض الكنائس، وغطاه القسيس بإحدى الحلائس، وجلس من فرقه لستره جالس لمثلوا به تمثيلا، ولا يظلمون لعمري فتيلا.

المقامة الخامسة: المقامة الذبية

فمن عقله الوافر، ومحياه البهي السافر، أصبح ذات يوم ذا بكاء، وانتحاب، وقد استشاط غضبا على الرفقاء، والأصحاب، فقيل له في ذلك، أنه ذب عليه بالليل ذباب، لقد ضل وخاب، من تظنى ماء السراب، وإن هذا الشيء عجاب، فأي نفس تلتفت إليه فضلا أن تذب عليه، لحم جمل غث، ملطخ بفرث، فكيف يشتهيه آكل، فالكلب إن قرب منه معرض عنه وناكل، فكثر منه القال والقيل، والصراخ والعويل، واتخذ للحراسة سراويل، وأقسم أن لو عرفه حق المعرفة، لأولاه ما يستحق من السب والشتم، إلا إن كان معرفة، وجعل يتهم كل من وقع بينه وبينه نزاع، أنه صاحب ذلك المكر والخداع، فأقسم له جميع من في الدار وحلف، أنه لم يذب عليه أحد فيما سلف، وأنه ليس فيهم من يحسن هذه الصناعة، حتى يرتكب هذه الشناعة، وأنهم يبحثون عمن فعل هذا الأمر في السر والجهر، فإن وقفوا على عينه، وما ثبت من شأنه وشينه، ليكونن له عليه من الأنصار، حتى يأخذ منه الثار، فجعلوا يتطلبون أخباره، ويذكرون في الأندية عاره، فقيل أنهم وجدوا الذباب نصرانيا، كانت له زوجة وكان في محبتها فانيا، فبلغه أن المذبوب عليه تكلم مع معشوقه وأشار إليه، فحلف ذلك النصراني بالصليب أن لا يجازيه إلا بالتذبيب، جزاء من جنس العمل الذي أراد، وأقسم أنه ليعود إن عاد، وشاعت فعلته في بلاد النصارى، فطبقت مدائن وأمصارا، وصاروا يردون لرؤيته

أفواجا أفواجا فكأنما أزعجوا لذلك إزعاجا، والذباب واقف يعرفهم بصاحبه الذي أصبح حلف ذل وشين، ليتحققوه دون مين.

ولكم من سعى ليصطاد فاصطيد ولم يلق غير خفي حنين

وجعل بعد ذلك يتوعده، وينظره شزرا ويرصده، فضاق الوضع من ذلك ذرعا، عشرة أيام وبضعا، وجعل يحذر حتى من أصدقائه الأحباب، واتخذ أقفالا ليغلق عليه بالليل الأبواب، فلما أعياه أمره، وعيل صبره، أتى مستغيثا وقال: يا سادتي إن استطعتم أن يقيل هذا الشيطان عثرتي، فقد طالت من لسعته ليلتي، وما نفعت حيلتي، ولا أغمضت مقلتي، فتلك غاية منيتي.

فنصبنا له سهام الملام، وأغلظنا له في القول والكلام، وقلنا له: ياخب، قد استوجبت الجب، فقال: والله ماصدر مني في جانب هذه المرأة وزوجها، سوى ذات يوم رأيتها تبول فأمعنت النظر في فرجها، ومن أجل ذلك أنا مترقب خائف، أن يطوف علي مرة أخرى بالليل هذا الطائف، فها أنا أبيت ليلي كله واقف، أحرس من هؤلاء المتمردين، الذين يذبون متجردين. فقلنا له: مالك منا إلا الإسعاف دون إجحاف، فاسترنينا ذلك الذباب، واتخذناه من الأصحاب، وأوليناه من الملام والعتاب، مايستوجب

كل ذباب مرتاب، وكلما بالغنا في الإنكار عليه، بسبب الذنب المنسوب إليه، تحرج وتظلم، وتألم وتضرم وقال: كيف يسلم صدري، على من رام بالمحاق بدري، والله ما له مني خلاص {ولات حين مناص} . حتى يقدر مقدار جريمته، وما يجره المرء على خليلته، فضلا على حليلته، فذلك أبلغ في إساءته وسيئة جزاء عن سيئة. فبقينا معه نلين ونمهد، ونغرر وننجد، وطورا نخوف ونهدد، وهو مع ذلك مرة ينزو ومرة يلين، وطورا يستأسد وآونة يستكين، إلى أن وقع الإتفاق، بعد كلف ومشاق، على أن يقف مكشوف العورة في طاق، وتجتمع لرؤيته الرفاق فقلنا له: دون هذه الفضيحة الحتف، وهما خطتا خسف. فقال: ما رضيت هذا إلا جبرا لخاطركم، وهو قليل في حق هذا المريد، وإلا فإنك لتعلم ما نريد. فارتكبنا أخف الضررين، وأسهل الأمرين، وجعل لذلك يوما موعدا، وهو مع ذلك يلحظه متوعدا. فلما قرب الأجل، وقلق الخصم واستعجل، كسانا من أجل فضيحته الحياء والخجل، وجعل النصراني المذكور يجمع الجموع لذلك، ويرد المارين بالطرق والمسالك، وضاقت بالخبيث الدنيا بما رحبت، ورأى فضيحته قد قربت، فاستنزلت من القوم في حل هذا المشكل الآراء، وأن يشير علينا كل بما يرى، فبينما نحن كذلك إذ طلع علينا شيخ المصورين، وقدوة أعيانهم المعتبرين، فأخرج صورة الخبيث المتقدم ذكرها، الشنيع ذكرها، وقال: إني كنت عاهدتكم على إبطال هذه الصورة، وكل ما كان عندي منها صيرتها هشيما مكسورة، وقد وجدت هذه الصورة باقية عندي، فأتيتكم بها لئلا تقولوا نقضت عهدي، ثم سمعت بعض أصحابنا كانوا

بالقرب منا، يتذاكرون أمر الخنثى، وما نصيبه إذا رام إرثا، وهل النظر إلى عورته لتمحيصه جائز، أو في مرآة كأنه من فوق حائل أو حاجز، وغير ذلك من اضطراب الأقوال، واختلاف الأحوال، ثم ألقي في البال أن يدعى النصراني إلى رؤية الصورة بدل صاحبها ويكتفي بذلك ولو بأطماع ويستمال، فاستدعينا النصراني، فورا بلا تواني، وأبدينا له من البشاشة والإستعطاف، عسى أن يكتفي ويقنع بالنظر إلى الصورة ويقابلنا بالإسعاف، واستلزمنا له بالحلوان وأعطينا له بذلك الكفيل، ونظر إلى الصورة وتفاصلنا على وجه جميل، وقيل تمسكوا بهذه الصورة لئلا تدعوا إليها مرة أخرى ضرورة، فعجبنا من سعده وبخته، وكيف خدمه الدهر بإتيان هذه الصورة مع مكثه ولبثه، وقلت فيه قصيدة وقد لقبه بعض أصحابنا بالبقاعي، لقب رجل متقدم تحكى عنه أشياء من المهانة، وذكرت سرقته الزيت وجمعه نفاضة الموائد، وعمش عينه من كثرة فسائه، وعدم استنجائه ولا استجماره، كما شهد به رفقاؤه، وجلده عميرة كما سمعت ذلك منه في ملإ، وسواد نعله، وهي هذه:

سماع لما أحدثكم سماع الأخبار لها منها دواع

فلم تأت بها الأخبار أصلا نوادر لم تقيد عن رعاع

فرحال البلاد لها اعتناء بأخبار الحضيض أو اليفاع

فأوصاف الدناءة قد تناهت وحطت رحلها عند البقاع

بعيد مسيرها برا وبحرا تسائل عن فتى نزب شجاع

يخوض الليل إن هدأت عيون فلا يثنيه صعب ذو امتناع

ولاكن في اختلاس الزيت ليلا من المصباح من بعد ارتفاع

أصيل من صميم القوم يبدو له في كل فضل مد باع

ولاكن في فضالة كل عرس وقيعان الأواني والقصاع

له عين أسال الدمع منها فساء هب من ثقب مشاع

بعير خراءة من غير غسل ولامسح الحجارة والرقاع

يردده ولا طول ليل ويدخل رأسه تحت اللفاع

فيصعد منه للعين سحب فينزل منها دمع ذو انهماع

فإن يضرط حسبت رعدا وأن الرعد للأمطار داع

وإن يخصب فيتبع ذا خراء وإن الخصب من بعد الرداع

وإن أجبت تشبيها غريبا فسماع لما أحدثكم سماع

كأن العين منه عين ماء فسؤه بخار في ارتفاع

فجالت في مهامه كل أرض مدى طول لها ومدى اتساع

ولم تر مثله كفؤا دنيا لئيما في مهانة واتضاع

فأنشد شطرين في مساق وألحان في وافر الإنتفاع

فإن تسل عن الشيخ البقاعي   فكان أذل من وتد بقاع

وقالوا: في رباط سلا خطيب   فيوشك أن يكون بلا نزاع

به اجتمعت شروطك فاستريحي   وشدي نحوه ثوب الشراع

فجدت سيرها تفري إليه   مهامه لاتقصر من ضياع

وقالت: قد ظفرت به خليلا   أخا الأنذال من جنس الضباع

وقالت: قد أتيتك من بلاد   وخلفت الموالي مع رباع

وما شرطت صداقا جل قدرا   سوى نعل مقابلة البضاع

فأبرزها وقد حديث لحزن   زمان التيه من دخر المتاع

وقالت: قد رضيت بها صداقا   ألا فانهض لتدبير الجماع

فقد أعياك جلد عميرة   بل وأعيى الكف من هز الذراع

هذا جزاء من جلباب الحيا عن وجهه زائل، ومن هو من حلى المروءة عاطل:

ومن دعى الناس إلى ذمه   ذموه بالحق وبالباطل

وأما عدو الكريم الشقي الغدار، الخائن الختار، مؤذي الصالحين والأخيار، وذوي المقدار، فقد حسر عن ساعده وأشار أنه لايشهد إلا إذا كان قنطار، فانظر عافاني الله وإياك إلى هذا الإصرار، وكيف لم يراقب الله تعالى في الجهر والإسرار، وعميت منه البصيرة والأبصار، وكتم شهادة الله ونبذ نص الكتاب وراء ظهره من غير مبالاة ولا اعتبار، لكنه ظالم والظلام يؤخرهم الله ليوم تشخص فيه الأبصار، ويوم لا تنفع الأنصار، ويحق عليه القول بعد التلوم والإعذار، ويسأل عنها لما كتمها بعد أن سئلها وهو بها من العالمين، ويندم حيث لا ينفعه ندم النادمين، ويقول: {ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين }.

{أولائك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبهم أقفالها، إن الذين أرتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم } وإذا حذر من الله تعالى أبى إلا العناد {وإذا قيل له إتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبيس المهاد} . وقال صلى الله عليه وسلم (من كتم شهادة إذا دعي إليها كان كمن شهد بالزور). وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الصبح فلما انصرف قام قائما فقال: (عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ثلاث مرات) . ثم قرأ {فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور، حنفاء لله غير مشركين به } . ومن شقاوته وحرمانه، وتدنسه بأكل الرشى وبهتانه، أن سيدنا نصره الله أمره أن يتوجه إلى حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام، وكأنه أيده الله كوشف بباطنه، وخبث معاطنه، فزاد في الكتاب الذي بعث

إليه أن يتوجه رغما على أنفه، فتوجه على ثقل ومضاضة كأنما سيق إلى حتفه، ولم يحركه شوق ولا باعث، لزيارة بيت الباعث الوارث، يا لها من أعجوبة، عد التوجه إلى الحرام الشريف عقوبة، مشى بلا نية، وخبث منه السر والعلانية، فتفجر من خبثه ما أذى حتى المعارف والأحباب، وفرق الأصحاب، وتركهم شرداء في الإغتراب، ما أظنه يرى طيبة ولا يطأ تربتها، فالمدينة تنفي خبثها، وأي حج بمال حرام، يجتمع مع الرشى على الشهادات والأحكام، وأموال المحاجر والأيتام؟ ولله در بعضهم في القول بالموجب:

يحجون بالمال الذي يجمعونه حراما إلى البيت العتيق المحرم

ويزعم كل أن تحط ذنوبهم تحط، ولكن فوقهم في جهنم

وقال آخر:

إذا حججت بمال أصله سحت فما حججت ولكن حجت العير

فما حصل هذا الشقي إلا التعب، وشد أحلاس وقتب، خرج الأمر كما توهم سيدنا المنصور وظنه، فصار فعله وقوله بمنزلة اللغو الذي لوح الهوى ظنه، ولقد صدق عليهم ظنه، ولما ورد

عليه رسول مولانا بكتابه الشريف يأمره فيه بالسفر، اشمأز ونفر، وأساء الرد في ملإ ممن آمن وكفر، استحوذ بذلك على من كان من المومنين الحياء والخفر، قائلا بلسان فجوره، وتجاسر زوره، في جمع من أهل الحاضرة والأعراب، ياليته لو بعثه سيدنا مكان الحج للغراب، اختار الغراب الذي هو عند النصارى محل عذاب، عن حج بيت رب الأرباب، وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم مع خيري الأصحاب، فانظر إلى هذا الجفا، وكيف أساء هذا الوقح الرد على جانب المصطفى، وآثر على ذلك هواه، وظل عن طريق هداه، ولم تسمح نفسه بما كان يحوصل من الرشى، وكذا وكذا، وبسطا وفرشا، وقد قال صلى الله عليه وسلم (لايكون المومن مؤمنا حتى أكون أحب إليه من والده وولده). اللهم اجعلنا من المحبين فيه وفي آله وولده، ولاتحرمنا فضل شفاعته، بجاهه وبركته، وأوردنا حوضه، وأدخلنا روضه، وكن لنا حيثما كنا، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، قبحهم الله فما أقل حياءهم، ياليت شعري بأي وجه يقابل صاحب ذلك الضريح، وطبيب من هو من الذنوب كليم جريح، وبأي لسان يخاطبه ويسائله، لقد خابت وسائله، وخسر فيما يحاوله، ويناوله، يمينا بمن لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، إنه لن يفلح أبدا، من أمكنته مشاهدة أنوار النبوءة، ومهبط الملائكة ومتنزل الوحي، فتلكأ وتردد، وبدا منه من الصدود ما بدا، ولله در الإمام العالم أبو سعيد بن لب في قصيدة نبوية، ومنها قوله:

وصلنا السرى وهجرنا الديارا وجئناك نطوي إليك القفارا

أحن اشتياقا لريح سرت وأبدي هياما لبرق أنارا

حنينا وشوقا إلى معلم حوى شرفا خالدا لا يجارى

به أسكن الله أسمى الورى نبيا كريما وصحبا خيارا

يحق علينا ركوب البحار وجوب القفار إليه ابتدارا

فيا فوز من فاز في طيبة بلثم المغاني جدارا جدارا

وهي قصيدة وإنما بهذه القطعة لمناسبتها لحالي، في حلي وترحالي، فقد طالما نفوسنا إلى تلك المعاهد تشوقت واتلعت، وبأعناق طمعها تطلعت، فلم يقدر في الوقت إمكان، لإقامة الله إياي في هذه الخدمة الشريفة، بالوظائف السامية الأركان، فكنت أجاهد من تشوقي وتخلفي ما أجاهد، وأكابد في عدم توجهي مثلما في توجهه هذا المحروم يكابد، ويرحم الله لسان الدين بن الخطيب حيث كتب عن سلطانه رسالة إلى أهل العدوة يستنجدهم ويطلب منهم المدد والإعانة على قتال العدو الكافر حيث يقول:

ماذا يكون جوابكم لنبيكم وطريق هذا العذر غير ممهد

إن قيل لم فرطتم في أمتي وتركتموهم للعدو المعتدي

تالله لو أن العقوبة لم تخف لكفى الحيا من وجه ذاك السيد

أردت البيت الأول والثالث لمناسبتهما لحال أبي الخبائث، الذي آثر دنياه وسد عن آخرته باب الدواعي والبواعث، وما أحقه بقول أبي نواس في بعض مجونه عفا الله عنه:

وقائل هل تريد الحج قلت له نعم إذا فنيت لذات بغداد
فكيف بالحج مادمت منغمسا في بيت قوادة أو بيت نباذ

ونحوه ما يحكى أن موسى بن داود عزم على الحج فقال لأبي دلامة:

أحجج معي ولك عشرة آلاف درهم، فقال له: هاتها فرفعها إليه فقبضها وهرب إلى السواد، فجعل ينفقها هنالك في شرب الخمر، فطلبه موسى فلم يجده وخشي فوات الحج فخرج، فلما شارف القادسية إذا هو بأبي دلامة خارجا من قرية إلى أخرى سكران، فأمر به فقيد وطرح في محمل بين يديه، فلما سار غير بعيد أقبل على موسى وقال:

يأيها الناس قولوا أجمعون معا صلى الإله على موسى بن داود
كأن ديباجتي خديه من ذهب إذا بدا لك في أثوابه السود

إني أعوذ بداود وأعظمه من أن أكلف حجا يابن داود

خبرت أن طريق الحج معطشة من الشراب وما شربي بتصريد

والله مافي من أجر فتطلبه ولا الثناء على ديني بمحمود

فقال موسى: ألقوه عن المحمل لعنه الله، فألقي وعاد إلى قصفه بالسواد حتى أنفق المال في شرب الخمر، قبحه الله وقبح أمثاله.

(اللهم لاتحرمنا من حج بيتك الحرام، وزيارة قبر نبيك عليه السلام)

ألا يامحب المصطفى زد صبابة وضمخ لسان الذكر بطيبه

ولا تعبأن بالمبطلين فإنما علامة حب الله حب حبيبه

وقال أبو بكر بن الأرقم مذيلا للبيتين المذكورين:

نبي هدانا من ضلال وحيرة إلى مرتقى المحل خصيبه

فهل ينكر الملهوف فضل مجيره ويغمط شاكي الداء فضل طبيبه

ولله در القائل:

ياشفيع العصاة أنت رجائي كيف يغشى الرجاء عندك خيبة

وإذا كنت حاضرا بفؤادي غيبة الجسم عنك ليست بغيبة

ليس في العيش في البلاد انتفاع أطيب العيش ما يكون بطيبة

فالدواوين ملئى بالمدح، وأهل المحبة يصرفون إلى ذلك ما ينشا حتى عن الحمام من الهديل والصدح، وهذه درة من قلادة نحو، بل عربون من بضائع تجر، بل نقطة من بحر، فالغاية التي لاتدرك يجب أن تترك، فبحر المحبة زاخر، ليس له انتهاء ولا آخر، فمن رام وصولا إلى غاياته أضحى بلسان الوجود منه ساخر، فهو مجال كلت فيه رجال، من أهل البديهة والإرتجال، فالمحبة والحمد لله ثابتة في جميع الأنام، الخصوص منهم والعوام، ولايبدي هذا الجفا، في جانب المصطفى، إلا كافر أو منافق فاجر، بل المنافق لايبديه، وإن فيه يستره ويخفيه، ولايصدر هذا البذاء إلا من الكافر المحض الذي تقلد الكفر وتوشح، وكل إناء بالذي فيه يرشح، لأننا بذلك الجناب الشريف نحاول وبه نناول، وبذلك الرسول الكريم كل مؤمن من الموقف يصول، إلا من لا يعتقده من جاحد أو كافر مخذول، وكثيرا ما اتفق لبعض العوام، في غالب الأعوام، خرج مع الركب بقصد أن يودع ويشيع، فجذب بمحبته ورفع، من غير راحلة ولا زاد، فحج من عامه

وإلى وطنه على أحسن حال رجع وعاد. فأما هذا الممقوت الذي نزع عن وجهه جلباب الحياء والحشمة، واتف بكل قحة ووصمة، ما رأيت أعجب من أمره. ورد عليه أمر مولانا —أيده الله— أول مرة بالسفر إلى المشرق فأنت سمعت ما أجاب به الرسول، ثم ورد علي كتاب آخر بعد ذلك، وذكر فيه سيدنا أنني إن فرغت من فداء أسارى مالقة أصحبه معي إلى نابل —بلاد الطاغية— فسري عنه وكأنما نشط من عقال، أو سرح بعد اعتقال، ثم ورد علينا أمر آخر بنقيض ذلك محتما في بعثه للمشرق، فكأنما سقطت عليه السماء، أو كأنه حوت خرج من الماء، فساءت أخلاقه، وتوالى بالفجر والفحش انطلاقه، ما شبهته في أحواله من إحجامه ونكده حين توجه للحرم الشريف، وبنشاطه وفرحه حين يأتي الأمر بخلاف ذلك، وتحمل في دينه ما شان، وكان أخسر صفقة من أبي غبشان، ألا بفيل الحبشان، وقلت في ذلك وقد لقبه بعض أصحابنا علقما، ولعمري لقد صادق الإسم المسمى، حيث كشف عنه السفر المعمى:

علقم قد قالوا طلع لجانب الشر وقمع

فقلت كلا إنه ليس له فيه طمع

فقد توجه على مضاضة ومن جزع

هدده المولى الذي من رعبه ينشا الفزع

آلية مبرورة في ضمنها الحق صدع

ليرغمن أنفه ويبقينه جزع

إذا تولى أو تراخى، أو تلكأ أو خدع

ثم انثنى كجمل مهرولا وقد ضبع

أثقله الحمل فولى مدبرا وقد فزع

كأنه محمود أبرهة الأشرم اللكع

فأن يرد من فيله مع حزبه الذي جمع

تقدما لكيده جنبه للأرض وضع

كأنه من وعك أصابه، ومن وجع

فذاك من سعادة رجوعه الذي رجع

هذا رجوعه شقاوة، فبيس ما صنع

في سورة متلوة عقابه قد اجتمع

آياتها مجلوة ونورها لقد لمع

{ويل لكل همزة لمزة} الذي جمع

أعظم بها من سبة وخزية فيها وقع

أقبح بها من وقاحة بذرعها قد إدرع

أعظم بها من فلتة واحسرتا الخرق اتسع

أقبح بها من زلة في جهلها لقد رتع

أعظم بها من كربة ونكبة بها اتضع

أقبح بها من ورطة قد عولجت فما نفع

وأحجم الطبيب عن علاجه، هذا الفضع

كأنما حملة الأ سر الشريف المتبع

لزعجه لمشرق لما بدا منه الورع

نويفل قد ألقى عليه ما ثناه وقمع

مابعد نويفل الرضى إلا حجارة تقع

هلاكه معجل فما لقنفوذ قبع

فهاكها حديثها معنعن وقد نصع

وإذا تأملته وجدته قد استكمل خصال النفاق بالإتفاق. فقد رأيت منه أخس الكذب الذي لايرضاه سفهاء العوام، ولا يؤثر فيه ظهوره عليه ولا افتضاحه بين الأنام، ولا يرده عنه عتاب ولا ملام، مع التعمد والإدامة، ويريش لإذاية المسلمين منه سهامه، يخترق ويحلف، ويضيع دينه لذلك وهو لايدري ويتلف، مع البهتان العظيم، والتجاسر والتهاون بمقام أولياء الله الجديرين بالتعظيم، حتى أنه ليستقر ببزته، وكبر عمته، وطول سبلة لحيته، من لم تكن بينه مداخلة ولا

مقارنة، ولا مساجلة. كما وقع لي ذلك قبل أن نستقرئ أحواله، ونزن أفعاله وأقواله، فكشفت عنه الأسفار والإغتراب، أنه سراب، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، ووجده ظلا مستنسخا وفيئا، فلو رأيته يمشي وينم وهو يتأسف، ويتأوه ويتأفف ويتحمل من الألم ويتكلف، ويظهر أن ذلك عن شفقة وقلب سليم. وله في نقيض ذلك اعتقاد وتصميم، لقلت: {سبحانك هذا بهتان عظيم} . وقل من يتفطن له لذلك إلا من اختبره، واستقصى عبره.

وأما الخصلة الثانية من النفاق التي هي الفجور، فما بعد كتمان الشهادة التي تعادل الزور؟ وأما الغدر فقد تقدمت قضية الحاج محمد تميم قائد تطوان، وكيف استل عليه العدا سيف العدوان، باتفاقه وخدع نفاقه.

وأما الخيانة فقد طلبها مني بواسطة بلديه البناي، وهو عدل عندهم {ولاتزر وازرة وزر أخرى} وقد أنهي إلي أن ابن عمه قاضي تطوان يحذر منه حذرا شديدا إذ ثبت عنده فجوره وبهتانه، فنهاه عن ضلاله، وذكره عاقبة وباله، فما زاده إلا نفورا {فأبى الظالمون إلا كفورا} .

فجعل يتوعده، ويبحث عما يؤذيه به ويهدده. وقد ذكرت أمره لمن كان مغرورا به حتى عرفه، وولى وجهه عن قبلته الباطلة وصرفه، فأخبرني أنه معروف عند الخاصة بذلك في بلده وفي غير بلده، وأن أزمة النميمة والتخليط طوع يده، وأنه نافق البغلة لايفتر له من الغمز حاجب ولا مقلة.

وأما ولايته القضاء، فمن سوء القضاء، وقد شب في المسلمين نار الغضا، فبلغ من إدايته أن قاسم عدوله، وألقى معنفه على ذلك وعدوله، بأن عين منهم إثنين أجلسهما معه في مجلس الأحكام، ليستوعبوا الشهادات على سائر فصول الخصام، ومهما كتبوا رسما إلا أومئوا إلى صاحبه وأشاروا عليه: إن أردت أن نؤدي ذلك عند القاضي فانظر ما تقرب إليه فيستخلصون منه كل درهم مخزون، ويتركونه حلف إفلاس وهو محزون، فقد أخبرني بلديه البناي وهو عدل عندهم أن رجلا كتب وكالة أعطى عليها ثلاث أواقي، فالله تعالى للمسلمين من هؤلاء المتجرئين كال وواقي، وأما مال الحاجر، فهو بضاعة لكل تاجر، وليس للمحجور من ربح ماله حظ ولا نصيب، فسهمه يخطئ ولا يصيب، فالخسارة عليه ولا ربح لديه. وأما مال الأحباس والأوقاف, فإنه يفعل فيه ما فعلته الريح بأهل الأحقاف، ولا يمنعه منه جبل قاف. وأما علمه فقد اشتهر خطأه ووهمه، وطاش في ذلك سهمه. فمما اتفق لي معه أننا لما أرسينا بمالطة، كنا نتحدث ذات يوم ونحن بالمركب قبل نزولنا إلى البلد، فدار بيننا حديث حول الأسارى وكثرتهم في تلك المدينة، وقيل أن لهم مسجدا ومقبرة، فقال بلسان فجوره وبرقش زوره: لا بأس علينا لاتفوتنا صلاة الجمعة هاهنا. فقلت له: يافقيه كيف تصح صلاة الجمعة هنا؟ فقال: ولم لا تصح فقد قال في المختصر: (بحضور إثني عشر باقين لسلامتها) وهنا جمع من المسلمين. فأين ذهب عقلك أنت من قول المختصر أيضا: (باستيطان بلد) وأي نية عند الأسير

في الاستيطان، وهو موثق من وثاق الأسر بأشطان، ولو أمكن له أن يطير لطار. فقال: سبحان الله جمع كبير من المسلمين ولهم مسجد ولا تجب عليهم جمعة ؟.

ومما اتفق لي معه أيضا أننا كنا نتكلم في شهادة فسألته عنها، فقال: أنا على يقين منها وأحلف أن ذلك حق، وقد أذكرني حال هذا السفيه بل الفقيه أحد الطلبة كان بالبادية فابتاع رجل من آخر فرسا فأراد البائع أخذ لجام الفرس فأبى المشتري فترافعا إلى ذلك الطالب فعرضا عليه النازلة، فقال لهما: إصبر حتى أطالع، فأخرج نسخة من البردة وتصفح أوراقها والتفت إلى المشتري وقال له: أثبت أن الفرس جموح وخذ اللجام. فلج البائع في الخصام فانتهره وقال له: قال البوصيري: كما ترد جماح الخيل باللجم فبأي شيء يرد هذا المشتري الفرس إن جمح؟. وتذكرت به أيضا ما وقع لبعض القضاة فقد كان في مجلسه مع خاصته فجرى بينهما الكلام في شأن الوصية بالحبس، فقيل: واتبع شرطه إن جاز. فقال: هو كذلك والله تعالى يقول: فمن بدل أو غير فالله حسبه. فقال أحد الطلبة مسترا عليه: لعلك نسيت، وإن ذلك ليس من كلام الله وإنما هو تلفيق الموثق. فانتهره انتهارا، وأبدى لجانبه احتقارا، أسكت فإنك لم تحفظ أسرارا. وكذا القاضي إبن جعسوس وهو القاضي أبو الحسن الذي ألف ابن الخطيب خلع الرسن في وصف القاضي أبي الحسن، فقد روى عنه أنه قال: أن أمه مذكورة في القرآن، فقيل له: في أي موضع؟ فقال: قال تعالى: ولا تجعسسو. فقيل له: لم يقل الله كذلك وإنما قال {ولا تجسسوا} . فقال: يا فقيه حفظ الصغر.

الحاصل مثل هذا القاضي معدوم، ولا قاضي سدوم. وقال بعضهم يهجو قاضي بلده:

لا شر قاض رأيناه ببلدتنا في الجهل منه, وفي الجور الورى حاروا
فهو من النفر الأدنين منزلة من حاكم بسدوم عنه أخبار

ولو رآه ابن الخطيب لما خلع الرسن في وصف القاضي أبي الحسن، ورأى أن تقديمه عليه صواب وحسن، أو رآه صاحب القلائد لأنساه ما أورد في ابن باجة من النوادر والفوائد، ونقل لابن عاصم خبره لأغنته عن حدائقه عبره، أو إلى الأصمعي ما عدّ نفسه فيما جمع بالمعنى، أو إلى الجاحظ لرأى أنه فيما نقل غير حافظ، وأن لا يلحظ نوادره لاحظ. غاية الأمر مثالب هذا القاضي لاتعد ولا تحصى، وإن أطنبت عبارة أو نصا، مما جمع سفاهة ونقصا، فما قاضي حمص، مع تقلبه في البهتان في كل آونة لونا، والله ما يصلح أن يكون للقاضي عونا، فبأقل من فجوره آخر الأعوان، اتقاء لما يصدر منهم من الفجور والعدوان، ويرحم الله العالم، العارف بالله تعالى، سيدي محمد بن عباد فقد خطب يوم جمعة في القرويين وحضر أمير المسلمين أبو العباس بن السلطان أبي سالم وقال: أثناء خطبته من الأمور المستحسنة: أن لايبقى الوالي سنة. وقد كتب الإمام ابن عاصم رحمه الله رسالة يقول فيها: ((القضاء إن لم يحطه العدل من كلا جانبيه سبيل معوج، ومذهب لا يوافق عليه مناظر ولا ينظره محتج، كما أنه إذا أحاطه العدل سبيل للنجاة، وسبب

في رحمة الله المرتجاة). وهي طويلة في الغاية في معناها، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((القضاة: ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس عن جهل فهو في النار))، وكيف يسلك سبيل العدل من هو خال من العلم متبعا نفسه هواها، فإن قضى بجهل أو بغير حق ومع ذلك يستعمل نفسه في الكدية آخذا بمقتضى المقامة الساسانية يضل في دورانه بين المداشر والقرى كبغل سانية، وارتقى في المخادعة إلى الجناب العالي إلا أنه بحر لا تكدره الدلاء، على التتابع والولاء، فجعل يقصده في الأعياد ويضم إليه أخلاط الرفاق، وشذاذ الآفاق، يتبعونه من فنائه، مؤمنين على دعائه، {يعدهم ويمنيهم}، إذا أثمر غرسه، وطلعت غير آفلة في أفق طمعه شمسه، تخلص منهم وانساب، وتركهم شرداء في الاغتراب، بعد أن يقاسمهم على النقير والقطمير، مشمرا عن ساعد حرصه وشرهه أي تشمير، حتى يتمنوا أن يخرجوا منه كفافا، وينفروا عنه خفافا. ولما وصلنا في تقييد بعض خبره هذا المحل ورد علينا خبره بأنه مات وردي في حفرة في أرض قفرا، حيث لا يعرف ولا يدرى، مفتونا قد طبع الله على قلبه، وأخذه ببغيه، وعجل له سوء سعيه، {فانظر كيف كان عاقبة الظالمين}.

في غير حفظ الله من هامة هام بها الشيطان في كل واد

ما تركت حمدا ولا رحمة في فم إنسان ولا في فؤاد

فعزمت على أن أبطل ما من مآثره جمعت، وإليها أشرت وألمعت، إذ لست بمسمع من في القبور، وخصوصا من هو مشغول بنفسه من أهل الشقاء -عياذ بالله- والثبور، إذ لا فائدة ولا معنى، لمخاطبة من صارت له الأجداث مغنى، ثم بدا لي أن نتركه تذكرة لئلا يغتر بأمثاله وبشكله ومثاله.

هذا ولو جمعت الإنس والجن على جمع مثالبه أعوانا، واستغرقت الدهر فاتخذته لأحصاء معانيه اوانا، وأفني العمر في تسويد سقطات هذا الغمر، لما أحصيت في سنينه العديدة، ومدته المديدة، إلا ما يكون بالنسبة لباقيها دلائل وشواهد، ولما اقتضينا من نوادره سوى أوابد شوارد، ولما وفيت حقه بعد، ولا قلت إلا بالذي علمت سعد.

وأما محمد الحيرالسلاوي فكان أولا من جملة القوم في إنفاقهم على ضلال، الذي عاقبته خسران ووبال، إلا من أقلع عن غيه، وتاب قبل موته، وطهر نفسه بالرجوع إلى الحق من لوثه، ثم إنه رجع فنبذ المذكور مرافقة القوم، وأولاهم كل عتاب ولوم، وجعل يذكر في الأندية أخبارهم، ويشيع في المحافل عارهم، وما كانوا منطوون عليه من سوء السريرة، وقبح السيرة، ويخص نفسه بأشياء زائدة عليهم، وينسب لنفسه من القبائح أكثر مما نسب إليهم، وأظهر أنه إلى الله تعالى بحسن نيته، وصلح منه السر والعلانية، وإن ذلك عن اعتقاد وتصميم، وقلب سليم، وجعل يحضر معنا الصلوات الخمس جماعة، وغيرها من أفعال البر والطاعة، ويتودد إلينا بالدخول علينا

الساعة بعد الساعة، ويقرأ معنا الأوراد والأحزاب، طريقة من هو من صميم الأحباب، والمصطفين من الأصحاب، حتى لم يبق لأحد شك في حسن توبته، منكمش، وهو الخبير الذي ليس في نبئه ريب، ولا في نصحه من عيب:

سلوا عن مودة الرجال قلوبكم ...

وقال الآخر:

إذا استوحشت من رجل فكن منه على وجل
فلا يغررك باطنه فباطنه على دخل

فبقي معنا يترقب ويتودد، وإفشاءه معايب أصحابه يتوالى ويتعدد، ويذكر ذلك في غيبتنا أمام من يظن أنه يوصلنا ذلك فيتردد علينا كلامه ويتجدد، ويظهر أنه يقوم من الليل لإخلاص التوبة والدعاء على أصحابه فيتهجد ويتعبد، وكل ما اطلعت عليه من دسائس القوم فمن جهته، وربما واجههم به مشافهة بتصليب جبهته، غير مكترث بكلامهم، ولا بعتابهم ولا بملامهم. فكم من مرة طلب منا الصفح والتجاوز عما كانوا معتكفين عليه من الغيبة، وارتكاب

القبائح التي هي في الدين والدنيا معيبة، لكنني طوقيه على غره، ولم آمن غائلة مكره، فبقيت أسايره مجازيا لما قابلنا به في الظاهر، والله يتولى منه السرائر، وواصلناه بما تيسر لنا مع كثرة المئون والكلف بما صرفه في بعض حوائجه ونفقته، فإن يكن عن صميم ود فذاك وإلا فالمدارة صدقة

فلماذا تنفع المدارة إلا عند أهل الحفاظ والأحساب
من يداري اللئيم فهو كمن يستعمل الدر في نحور الكلاب

وكانت سيرته كلما ضمنا وإياه مجلس إلا أخذ في مثالب القوم يفيض، بلسان طويل عريض، فتوهمت بهذا الإكثار أنه ختار، فصدقت فيه فراستي، وعجل الله من تأمل أحواله استراحتي.

فجلس ذات يوم معنا فأخذ على عادته في حديث القوم معيدا، وبأخبارهم الشنيعة مفيدا، ويحمد الله على أن خرج من زمرتهم، واجتنب مخاهم، وقلى أفعالهم، وبسهام الهجر رماهم فأصماهم، ثم تواجد وقال: إنني قلت قصيدة أتوسل بها إلى الله بجميع الأولياء فيهم، وأن يجازيهم بما فعلوا فهو يكافيهم. فأتى بها وجعل يسردها علينا من ورقة، فنظرت في ظهر الورقة فوقع نظري على أسطر تأملتها فوجدته قيد فيها بخط يده ما يظن أنه يؤذينا به عند سيدنا ومولانا

الأمير، مشمرا لذلك أي تشمير، فعجبت من تباين قوله وفعله، الذي لا يرضاه كل سفيه، وحمدت الله على اعتقادي فيه، الذي لم يطمئن لخدعه وإن لونه تلوينا، لو كشف الغطاء ما زدت يقينا، فجعلته في حيز الإهمال، وأن ما فعلنا معه مما أحبط من الأعمال، ولم أزد عليه شيئا سوى أنني رددت إليه الورقة بعد أن عرفته بإطلاعي على ما فيها، بإمساكها وقراءتها.

وبقيت فضحته هذه بين العباد، إلى أبد الآباد من أسر سريرة ألبسه الله رداءها، وكفانا من نفوس أحسنا إليها مكرها وعداءها، وصرف عنا ضررها وداءها، نعوذ بالله من هذه الفضحة التي ليس له فيها مدفع، وتصميمه على أن يضر ولا ينفع، ولم يوجد في خرقه ما يرقع، ومن حفر حفر لأخيه حفرة فهو فيها من دونه يقع، فأنت وكيلي عليهم يا من يرى ويسمع، ويملك الأمر أجمع، فبقيت معه على حالتي لم أتعرض له بلوم ولا عتاب، وتركته كأنه غير مرتاب، وعلمت أنه صواغ باللسان، نمام جنس الإنسان، لا ينفع فيه الإحسان، على توالي الدهور والأزمان، إذ قليل الحياء قليل الإيمان، وأنزلته في الباطل والعدم سواء، حيث كان بمنزلة ذنب الديك تدور في الهواء، وأشاع على ذلك من الندم والإستغفار والبكاء والتفكر والإستعبار، ما توهم أن شبهه لبسه على النفوس، فحسبته إبريزا بعد اختباره، وبقي يتردد إلينا على حالته من غير حياء، ولا توقف ولاارتياء. حتى فضحه الله تعالى فضيحة أخرى، وجعلت المصائب تتوالى عليه وتترى، فوجدت بطاقة أخرى مكتوبة بخط يده الذي لا مدفع له فيه، وياليت شعري ما مراده بهذا التقييد، الذي لايرجع على مايبرقش في الظاهر إلا بالتفنيد،

فليس هذا من أفعال العقلاء، أنت تظهر خلاف ما تبطن ومعلوم ما في ذلك من تحمل المشاق، العظيمة التي تفشي ما في باطنك في الأوراق، فهذا -والعياذ بالله- داء ليس له واق:

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقة أعيت من يداويها

ونص ما ألفيته مقيدا:

(أما بعد حمداً لله تعالى نعلم سيدنا أننا قدمنا إلى ثغر (كذا) بخير وعافية من فضل الله تعالى وبركة سيدنا من بعد مالقينا من أهوال البحر، وعالجنا من مرائره حسنات سيدنا، وثانيا نعلم سيدنا أنا لما كنا بمالطة جاءتنا كتب سيدنا بأن كل واحد منا يتوجه في مركب سيدنا -أراد من مراكب سيدنا مع طائفة من الأسرى- لبلد ويرجع إلى مالطة لعند كاتب سيدنا فلان -إياي يعني- ماعدا السيد بن قريش فلا يرجع، فتعذر علينا ذلك، ولو ذهبنا مع السفن التي حملت الآسارى لبلدانهم لم نجد من يحملنا إلى نابل ولالنا قدرة على السفر في البر من تلك البلدان إلى المغرب لضعفنا، وعدم أمن السبل كما لا يخفى ذلك كله على سيدنا، فدعتنا الضرورة إلى مرافقة الباشدور -إياي يعني- إلى نابل فذهبنا معه على كراهية منه لنا

واستثقال. وحين قرب السفر من نابل وطلب منه النصارى أن يزمم أصحابه ليعطونهم -والصواب ليعطوهم- ما جرت به العادة عندهم أنهم يعطونه للبشدور وأصحابه زيادة على مرتبه كل يوم، لم يعدنا من جملة أصحابه، فخرجت الهدية له ولأصحابه خاصة، فحمدت الله تعالى على ذلك حيث لم يكن لأحد علينا فضل ولا منة، سوى فضل سيدنا ومنته أطال الله تعالى بقاءه، وأدام سموه وارتقاءه).

فتأمل مقاله، وفحوى كلامه، ومداره على الحرص على حطم الدنيا الفانية، وأطماعه المردية في الهاوية، كما يتبين لك إذا وزنت كلامه بكلامه، وعرضت آخره على أوله، فقوله أول كتابه: (وثانيا نعلم سيدنا أنا لما كنا بمالطة جاءتنا كتب سيدنا إلى قوله: (لم نجد من يحملنا إلى نابل) فأي ذكر تقدم لنابل، فإنك ذكرت أن سيدنا أمرك بالتوجه مع الأسارى وترجع إلينا إلى مالطة لا إلى نابل، فهلا فعلت ما أمرك به سيدنا أمير المؤمنين من التوجه مع الأسارى والرجوع إلى مالطة، فإن وجدتنا بها فذاك وإلا فقد فعلت ما أمرك به أمير المؤمنين أيده الله، وكاتبه حينئذ ليأمرك بما تصنع هل تقدم علينا لنابل أو على حضرته العلية، ونترك هذا كله فما كنت تفعل في الرجوع إلى مالطة إفعله في الرجوع إلى نابل على فرض الإذن فيه. وقوله (ولا قدرة لنا على السفر في البر من تلك البلدان إلى المغرب لضعفنا) إن كان مرادك بالضعف صفر الكف. فقد قلت ما أردت من غير مبالاة بنقد ناقد كعادتك، وقد تقدم بيان بعض ذلك، فإن سيدنا أيده الله ما بعثكم حتى أعطى كل واحد منكم ما يقوم بمئونته،

لكنك تسخى بمفارقة صاحبك وجليسك، ومنابذة خليلك وأنيسك، ولاتسمح في كيسك، وإن كان مرادك بالضعف عدم القوة وضعف البدن فهو مخالف عادة لما نقل عنكم بالتواتر، أنه كثر منكم التشكي من مواكلتنا وتؤثرون أن تأكلوا وحدكم معللين ذلك بأنه يحصل لنا الشبع كما زعمتم، بعد مساعفتنا لكم ومواكلتكم التي ندب الشرع إليها، وكثيرا ما كنت أحظكم على أن تقبلوا على شأنكم من المبالغة في الأكل حيث بليتم بإفراط النهم، عافاني الله وإياكم من ذلك فإنه والله إحدى المصائب، وهو أقوى داع إلى التطفيل، وبالوقاحة والولوج على الناس بغير إذن كفيل، ولا نطيل الكلام في هذا المعنى فإنه مقرر ومبين في طريقة ساسان، التي خلفها من بعده لنهماء جنس الإنسان، وإن استظهرت بصفرتك ونحول جسمك {والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه }، والذي خبث لا يخرج إلا نكدا، فذلك لاشتغال قلبك وفكرك بالحسد فإنه بلية من أعظم البلايا -عافانا الله وإياك من ذلك- وقد علمت أن الحاسد يأكل اللحم والدم، قال الشاعر:

اصبر على مضض الحسود فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

على أنني أنا الذي أخرتك عن السفر مع الأسارى حيث طلبت مني ذلك، وطلبت مني أن اعتذر عنك لسيدنا أيده الله فاعتذرنا عنك، وناولتك الكتاب حتى قرأته لتطمئن نفسك، فإذا بك تقول: تأخرنا عن السفر لضعفنا، دع دا وهات المراد من أطماعك المقصودة، وأمنيتك المنشودة، قول: (وعدم أمن السبل) فانظر هذه المصادرة الباردة، من المعلوم عند كل أحد أن القوافل لا تنقطع من تونس إلى الجزائر ولا من الجزائر إلى فاس هذا أمر مطروق معروف يعلمه كل أحد وهذا في حق من كان من عموم الناس، فأما أنتم فتتوجهون بالأسارى إلى أمير تونس في خدمة مولانا أمير المؤمنين وعلى فرض عدم أمن السبل كما زعمت فهو يبعثك على يده إلى الجزائر، وأمير الجزائر يبعثك على يده إلى فاس، فأين عدم أمن السبل في حقكم كما ذكرت؟ ولكن عد عن هذه الخرافات، وهات ما أنت تتحرق عليه مما فات، قوله (فدعتنا الضرورة لمرافقة الباشطور إلى نابل) فأي ضرورة دعتك إلى ما ذكر، بعد ما قرر، وسطر وفسر وبين، وهاهو حولها يدندن، هات يا أخا الترهات، قوله: (فذهبنا معه على كراهية منه لنا واستثقال) كفاك فخرا إن اعترافك بأنك كنت كلا ثقيلا، ولم يكفيك أن ثقلت علينا، وآذيت أرواحنا وأبصارنا فقد قال الشافعي رضي الله عنه: هل تمرض الروح؟. قال : نعم، من ظل الثقلاء. وسئل الأعمش بما عمشت عيناه؟ قال: من النظر إلى الثقلاء وذكر ثقيلا كان يجلس إلى جانبه فقال: والله إني لأبغض شق الذي يليه، ويحكى أن الأعمش كان ينشد عندما يستثقل جليسه هذا البيت:

فما الفيل تحمله ميتا بأثقل من بعض جلاسنا

وزعموا أنه قال: من فاتته ركعتا الفجر فليلعن الثقلاء، وأنه نقش على خاتمه يا مقيت، أبرمت فقم وإذا استثقل جليسا ناوله إياه.

وكان لبشار صديق يقال له هلال، فقال لبشار يوما: يا أبا معاذ فإن الله لم يذهب بصر أحد إلا عوضه منه بشيء، فبما عوضك؟ قال: الطويل العريض قال: وماهو؟ قال: أن لا أراك ولا أرى الثقلاء أمثالك، فتحرى الخ).

فتعدى به ثقله وخبثه إلى أن صار يذكر ذلك ويشيعه، ونحن أولى بهذا القول منك حيث أوذينا بثقلك، وتحريق مقلك، على أننا تحملنا من ذلك ما لا تقله الجبال يا جبال، ولم نقابلكم بمكروه أبدا بل احسنا إليكم مقدرتنا ولله در القائل:

سم سمة يحمد آثارها واشكر لمن أعطى ولو سمسمه
والمكر مهما استطعت لا تأته لتقتني السؤدة والمكرمه

وقال الآخر:

تطعم الكلب مرة فيحامي عنك، والكلب في عداد اللئام

وقال أعرابي:

كلاب الناس إن فكرت فيهم أضر عليك من كلب الكلاب

لأن الكلب لا يؤذي صديقا وأي صديق هذا في عذاب

ويأتي حين يأتي في ثياب وقد حرمت على رجل مصاب

فأخزى الله أثوابا عليه وأخزى الله ما تحت الثياب

وهذا مثل ما يحكى عن بعضهم قال: وجدت إبراهيم رضي الله عنه، أو غيره، من (كذا) مضطجعا وعند رأسه كلب نابح فأردت أن أصم الكلب فقال: دعه فإنه خير من جليس السوء.

وقد ألف بعضهم تأليفا (كذا) الكلاب على كثير من (كذا). فما هذا الخبث؟ تؤذوننا وتشتكون منا، وما حيلتي حتى أنتزع ثقلكم عن قلبي؟ فهذا مما لا أملك ولا قدرة لي على صرفه، ولو قدرت لما مكثت في معاناتكم سبعة عشر شهرا ولله در القائل:

شخصك في مقلة النديم أو حشر عن نحسة النجوم

يا رجلا وجهه علينا أثقل من منة السئيم

إني لأرجو بما أقاسي منك، خلاص من الجحيم

وقال الآخر في ثقيل:

مستثقل كالبغض لآتثني إليه طوعا لحظة إلى أمر

يظل في مجلسنا مبرما أثقل من واتر على عاتق

وقال الآخر:

وثقيل أشد من ثقل المو ت، ومن شدة العذاب الأليم

لو عصت ربها الجحيم لما كا ن سواه عقوبة للجحيم

وذكر عن العباس بن الحسن العلوي ثقيل يقال له أبو عمار، فقال: ما الحمام على الأصرار، وحلول الدين على الأقتار، وشدة السقم في الأسفار، بأثقل على النفس من أبي عمار.

وأنشد:

تحمل منه الأرض أضعاف ما يحمله الحوت من الأرض

والشعر في هذا المعنى كثير، وقد أدب الله الثقلاء فأنزل فيهم {فإذا طعمتم فانتشروا}. وكان حماد بن سلمة إذا رأى ثقيلا قال: (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مومنون)، والله يكفر به السيئات.

ولاكن لا يذهب العرف بين الله والناس

وقال الآخر:

الغدر في الناس شيمة سلفت قد طال بين الورى تصرفها

ما كل من سرت له نعم منك يرى قدرها ويعرفها

بل ربما أعقب الجزاء بها مضرة عز عنك مصرفها

أما ترى الشمس كيف تعطف بالنو ر على البدر وهو يكسفها

وقال الآخر:

أشكر لمن أولاك معروفا تكن بفضل النفس معروفا

شكر أخي المنة عدل، فكن بالعدل مهما استطعت موصوفا

من يكفر الإحسان لابد أن يلقى عن الإحسان معروفا

يا أيها المنبعث للشر، قبل أن يبعث، ومن استغرق أوقاته -عياذ بالله- في الإصرار على الأذى، فيغمز ويهمز، ويصف وينعت، غير هذا أولى بك، ولكن إفعل ماشئت، واجلب بخيلك ورجلك غاية إجلابك، فنحن بالله لابك، فسترى فيما حفرت سرعة انقلابك، لكن الحسود -والعياذ بالله- مكروب، والطبع مغلوب، فالصواب الإعراض عن حاله، وعدم الإلتفات إلى مقاله، قال الشاعر:

دع الحسود تعاقبه لظى جسده حتى تراه لقى يموت من كمده

ما للحسود سوى الإعراض عنه وأن يبقى إلى كربه في يومه وغده

ولو لم يكن من إحساننا إليكم، إلا تحمل أذاكم وثقلكم سبعة عشر شهرا كما اعترفتم به لكفى، ولا نذكر غيره من الإحسان الذي يجيز العقل وجوده وعدمه، ولا يسعكم كتمه، إلا أن تغمضوا فيه وترتكبون في ذلك ما ارتكب بعضكم في كتمان الشهادة التي لا مدفع في الدنيا ولا في الآخرة. أدعني سمعك فهاهو قد نصب الحبالة لا إبالة، وسوى شبكته عادته وحرفته، وأفصح بما في ضميره من الحرص والطمع، بما لم يكن في غيره اجتمع، وهو مضمن كتابه وفائدة خطابه، وهو قوله: (وحين قرب السفر من نابل وطلب منه النصارى -إياي يعني- أن يزمم أصحابه) إلى قوله: (لم يعدنا من جملة أصحابه) لعنة الله والملائكة والأنبياء المرسلين، والإنس والجن على الكاذب، من أين لك هذا؟ وكيف يمكن أن لا أعدك، فمن المعلوم والقانون الذي هو عند النصارى في الدفاتر مسطر مرقوم، ويعلمه كل من يتردد في البحر من الرؤساء وأصحاب البضائع والتجر، أن الإنسان لايركب البحر من بلد إلا بعد إحصاء عدد من معه وفي كل مرسى ينزلها إلا ويختبرون عددهم مع ما هو مكتوب في البطاقة المكتوبة في المرسى التي ركبوا منها، فإن وجدوا عندهم نقصا أو زيادة لايقبلونهم إلا بعد البحث في أمرهم البحث التام، ولاسيما من هو مسافر مثل سفرنا معين من قبل مولانا أمير المؤمنين، فإن المكاتب تكتب بخبره إلى

جميع الأقاليم بأن فلانا عينه سيده وأميره للتوجه إلى الأمير الفلاني إن كان مسلما، أو إلى الطاغية الفلاني إن كان من طواغي الكفر، ومعه كذا وكذا من الناس كل واحد بخدمته وحرفته.

وقد تكرر نزولنا في عدة من مدائن النصارى أولها قالص وما نزلناها حتى سألوني عمن معي وعددهم وحرفهم، فأخبرتهم بمرئ منكم ومسمع وأول من كنت أعرفهم به أنتم، والناس يرونكم ملحوظين، مقدمين عندي على جميع أصحابي، آكل وإياكم في إناء واحد، ونصلي الخمس جميعا، ويسألونني النصارى عنكم فأعرفهم بكم وأنتم حاضرون سامعون.

وسافرنا من قالص إلى مالطة فما نزلنا البر حتى سألوني أيضا عمن معي وعددهم ويقابلون كلامنا بما هو مكتوب، وبقينا بمالطة نحو أربعة أشهر وأنتم مقدمون على الغير. وسافرنا إلى نابل فسألونا أيضا كغيرهم فأخبرناهم وعرفناهم بجميع من معنا وأنتم الأولون، ولو لم نعرف بكم أو نعد أو نعد بكم كما زعمتم، نزلتم إلى البر من أول وهلة، فضلا عن أن تكونوا معي في دار واحدة، وتأكلوا معي في إناء واحد، فهذا قانون مقرر مشهور، لايسع أحدا جحده، وإنما كلامك في ذلك فضيحة قيضها الله لك يستدل بها من لم يعرفك، على بهتانك وفجورك، ولو أراد الله بك خيرا لخصت فيما هو أخفى من هذا، او ما يقبل الإحتمالات ليبقى الأمر فيك عند من لم يعرفك موقوفا، وزيادة في الإحتجاج على بطلان ما ذكرت أنكم كنتم أشهر من مثل، ولقبكم النصارى (بالباصين) المعنى (الطلبا). وأنت كنت تشير على النصارى أن يدعوك (باباص) ولاقيناكم مع الطاغية مرارا عديدة، ومهما كانت فرجة أو نزهة إلا وأصحبتكم معي،

وأؤدي من اللوازم في ركوبكم وفرجتكم ما هو معلوم، ولا يمكنكم كتمه إلا أن تتعمدوا ذلك كعادتكم في إنكار المحسوسات. مثل ما فعلتم في مالطة لما دعانا النصارى إلى الإكرام الذي احتفلوا فيه بقصدنا، وناديت عليكم وأصحابكم معي واحتفل النصارى في انتخاب طعامهم واجتنبوا الخمر فلم يحضروه على مائدتهم حيث تقدمنا لهم بذلك، ولم يكن هنالك ماينكر إلا آنية الفضة التي يأكلون فيها، فتلك عادة كبرائهم ولم نجد بدا من مساعفتهم، لكون الأغراض التي قدمنا عليها من فداء أسارى المسلمين كانت على يدهم، فارتكبت هذا المحرم طمعا فيما كنا نؤمل والله سبحانه وتعالى ولي المغفرة لا يتعاظم ذنبا، فمغفرته أوسع من ذنوبنا، ورحمته أرجى عندنا من عملنا، ثم إنكم امتنعتم من الجلوس على تلك المائدة محتجين بأن الأكل في الفضة حرام، والعجب كل العجب من هؤلاء القوم، وإن مثلهم عندي كمثل الذين سألوا عبد الله بن عمر عن المحرم بقتل القراد والبراغيث، فقال للسائلين: من أنتم؟ فقالوا من أهل الكوفة، فقال: تقتلون الحسين بن علي وتسألون عن دم البراغيث.

لله در القائل:

عجبت من شيخ ومن زهده   يذكر النار وأهوالها
يكره أن يشرب في فضة   ويشرب الفضة إن نالها

وقد كنتم في سعة عن ذلك، وهو أن لا تتوجهوا إليهم من أول وهلة، على أنكم لما كنا بقالص وأقمنا ستة وعشرين يوم تأكلون في اواني الفضة من غير إنكار ولا مبالاه، فلما عبت عليكم ما فعلتم في مالطة حتى أخجلتم أهل الدار إحتججتم بأن الأكل في الفضة حرام، فأوردت أكلكم عليكم فيها لما كنا بقالص فأنكرتم وزعمتم أنها قزدير، فاستهجن كذبكم جميع من معنا من المسلمين ولم يعول عليكم أحد بعد قليل الأشياء ولا في كثير.

ولما كنا في نابل بعد ذلك أكلتم في أواني الفضة أربعة أشهر ونصف. وفي صقلية ثلاثة أشهر ونصف كذلك، ولم يقع منكم إنكار ولا التفات لما فعلتم وقلتم في مالطة، كأن الأكل في الفضة إنما هو حرام عندكم في مالطة فقط، إذا لم تأخذوا الأواني. وكذلك لما كنا في مالطة وقد نصب النصارى كراسي مغشاة بالحرير في قبب الدار، فحين تحضرون معنا ويكون جمع من النصارى ولاتجدون في القبة إلا الكراسي المغشاة بالحرير تخرجون فتطلبون كراسي من الدوم، أو مغشاة بالجلد وتجلسون عليها أمام النصارى وتوهمونهم أنكم زهاد، تجتنبون ما حرمه الدين ولا تتساهلون، وقد علمت أن البقاعي، وهو الطيب بن جلول، رفيقكم سرق كرسيا مغشى بالحرير من القبة التي كنت بها وأطلعه إلى بيته ليجلس عليه، فإذا خرجتم أمام النصارى تفعلون هذا الناموس، تبا لكم ولأمثالكم. ولما كنا بنابل وصقلية وكنتم تتزاحمون على الجلوس على مقاعد الحرير.

إن تك ناسكا فكن كأويس أو تك فاتكا فكن كابن هان

ولله در ذي الرمة حيث يقول:

أما النبيذ فلا يذعرك شاربه   واحفظ ثيابك ممن يشرب الماء

قوم يوارون عما في ضميرهم   حتى إذا استحكموا كانوا هم الداء

وقال ابن الرومي:

ألا إنما الدنيا كجيفة ميتة   وطلابها مثل الكلاب النواهش

وأعظمهم ذما لها وأشدهم بها   شغفا قوم طوال القلانس

وقال أيضا:

أذيابا بدت لنا   في ثياب ملونة

أحلالا وجدتم   أكلنا من المؤونة

فما بالكم مذبذبين بين ذلك قبحكم الله لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، بيس الحال والله حالكم، وإن تماديتم على هذا الحال ولم تقلعوا وتتوبوا فبيس مصيركم ومالكم، والله تعالى يسلك بنا طريقا غير طريقكم، ويوفقنا لما يرضاه فهو ولي توفيقنا وتوفيقكم. وكيف يسوغ لك ما تقرر أن تقول أنني لم أزمكم {فماذا بعد الحق إلا الضلال}، وإن لم أزمكم كما زعمتم فبما أجيب حين سئلت عنكم؟ لقد أكثرتم الحز، وأخطأتم المفصل، وأكثرتم الهز لسيف غير مصقل، فما هذا البهتان ومن لك بأني لم أزمك، فإن كنت حاضرا فالعقل يأبى ذلك، ويلزمك أن تقول ما أجبت به عنكم، وإن كنت غائبا فكيف يجوز لك أن تقطع علينا بأمر لم تره منا ولم تسمعه، على أن الطمع الذي حملك على هذا البهتان الذي يشهد به كل من يقف عليه ويسلمه عقله، ألجأك إلى أن بحثت النصارى وباحثت الترجمان الذي كان معه الكلام فقال لك: ما أعطاكم الطاغية شيئا لعدم وجدان (باباصين) ووردوا مع باشطور من أول الدنيا، وهم متبعون القواعد، وتكلمتم معي في ذلك فقلت لكم: ها أنتم لا زلتم هنا فاسألوا عن خبركم. فسألتم فأجبتم بما تقدم، على أنه لم يفتكم شيء مما قبضه أصحابنا الذين كانوا يخدموننا وإياكم، الذي بقي في خاطركم ما قبضوا، فقد أعطيتكم من عندي مثل ما قبضوا، إن لو قسم ذلك على عدد رؤوسكم، على أنه يتعين عليكم من طريق الحياء والحشمة أن لو كان فيكم من يهتدي إليها أن تواسوهم من عندكم زيادة على ما عندهم في مقابلة ما خدموكم، فإنكم لا تستوجبون عليهم ذلك، وأما ما بعث به الطاغية خاصا بي فقد دفعته في فداء الأسارى

بشهادتكم ومعاينتكم -تقبله الله قبولا حسنا- ولم آخذ منه ما قل ولا ماجل، فقد أغنانا الله تعالى عن ذلك بسيدنا ومولانا أمير المؤمنين بالإفك الشنيع، طريقة لكل سفيه لا يبالي وضيع، فما ظنكم أنكم تخدعونه بكلامكم الركيك، وتركيب حيلكم الفكيك، وهو أيده الله ماهو عليه من البلاغة والفصاحة، والفطنة لمعارض الكلام وصدق الفراسة، إلا أن يتعامى لكم، فانظر إلى أين ترقى في الكذب وقلة الحياء، فصار يكذب على الله تعالى ويقول: (فحمدنا الله على ذلك حيث لم تكن علينا منة لأحد) الخ.

بالله يا من يقف عليه فإن كان ممن يعرفهم ويعرف أحوالهم فقد اتضح الأمر وهو يعرف فيهم أكثر مما عرفنا، وكأنني به يقيد على هامش هذا المحل مالا يخطر على بالنا من خسائسهم، إلا أن تحمله الحمية على أن يصدع بالحق، ولا يتوخى الصدق، فيلحق في عددهم وتكثير سوادهم، وغوغاء جرادهم، {ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله يوم القيامة } إلى مبينا، وإن كان ممن لم يعرفهم ولا عرفه الله بأمثالهم فليتأمل كلامه، وإن كان لايحتاج إلى تأمل، وينظر إلى أين بلغ هذا الحرص المردي، والقول المؤذي، إلى أن صار يعامل الله بالكذب فكيف يا ظالم نفسه تقول: (فحمدنا الله على ذلك. أنت تشتكي من الأمر للجن والإنس وتحمد الله عليه وقرائن أحوالك منافية لما تقول وهي دالة على صدقك أو كذبك، وتخادع من {يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور}، ولم تخش الله الذي من خشيته السماء تمور، فلو كنت حامدا الله تعالى على ما ذكرت كما زعمت، فلم تشكيك كما هو مسموع عنك ومنقول،

أف لمن لايدري مايقول، لكنك جهلت فقلت، وفي ميادين الوقاحة جلت، ولم تقدر مقدار ما افتريت، ولا ما قطعت من الأباطيل وفريت. ثم إنه بعث إلينا بعد ذلك بأبيات مضمنها التوبة معتذرا عن ما صدر منه بكونه مغلوبا للطبع المرار السوداوي، فيهيج عليه فتصدر منه تارة أشياء من الخير وضده مثل الأذى غلبة، ويذكر فيها ما معناه: أنني إن تأملت حاله لا ألومه، حسبنا الله ونعم الوكيل -كل ميسر لما خلق له، وقد علق ببالي بيتان من أبياته ومعناها كلها هو ما ذكر، ونص البيتين:

أقول لكل ظن أني أخون   وحاشا، وكلا ذالكم لا يكون

إلى أن قال:

ولا كنها السوداء يغلب طبعها   علي فتعروني لذلك شؤون

والشؤون هي ما ذكر من الإذاية الصادرة منه، علته المركوزة في طبعه، بهذا لا عمل على ما يصدر منه حتى من الخير، لأنه لا شعور له بما يبرز منه لكونه يصدر من حلقومه دون تدبر كما صرح به والعياذ بالله. {يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم} فتأمل رسالته الرقطا، لاختلاف ألوانها

فآخرها يبطل أولها، وكل منها يحبط الآخر حبطا، وكيف كان يشتكي من عدم قبضه، بافترائه وزعمه، وعماه عن طريق الحق ووهمه، حتى حمله ذلك على أن اشتكى على أمير المومنين –أيده الله– ونقض توبته أولا وثانيا وثالثا:

وأنت كجرو الذيب ليس بآلف أبى الذيب إلا أن يخون ويظلما

ويقول بعد: (فحمدنا الله على ذلك). وهو من الطمع والحرص بالمكان الذي لا يدرك، وإن توجه إلى البلدان، إنما عليه الطمع، ونبذ خدمة سيدنا أيده الله، التي بعثه على شأنها إذ مشهور انكبابه على الدنيا بكليته، حتى أنه يأخذها من حيث وجدها وأمكنه، ولو بخصام الفجور كمسألة الحاج أحمد بوحدو لما بعثه مع ولده إلى المشرق وأعطاه مالا معتبرا بقصد مئونة ولده ومئونته هو بحسب التبع في مقابلة خدمته، ولقصد التجارة، فادعى ضياعه لا قرينه، فطالبه رب المال فلم يجد مدفعا فحين ألح عليه استظهر برسم كتبه بخط يده، وقال له: إنني شاهد عليك بأنك تبرعت لبيت المال يصنع مركب غزوي إعانة لأمير المومنين على الجهاد، والآن فإن عدت لمطالبتي بمالك ولم تسقط عني الدعوة فأنا أشهد عليك بما ذكر. فخشي بوحدو الشخص المذكور و(أبر ...) له، فانظر هذا (...) من الاسم لصق به، فإن كان ما ذكرت

فكيف يحل لك أن تضيع بيت المال، استلزم له به لتحصيل الطمع الدنئ الذي لايعود عليك بخير في الدنيا ولا في الآخرة، وإن كنت كاذبا فلعنة الله على الكاذب.

وكقضية اللمطي الفاسي لما أشرت عليه برهن كتبه في مال وتتوجه به إلى الجزائر بقصد التجارة، ففعل وأعطاك إياه من غير إشهاد مغترا بناموسك فأنكرته وضاعت له كتبه. وهذه القضية مشهورة. وكقضية ولد الغرديس الفاسي لما تركت القراءة وإذاية نفسك (كذا) فاختلست له ما كان يجمع (...) وتأمل أعذاره الواهية، وما تعلق به من الأسباب المتلاشية البالية، فتنقطع به بكذبه على الله تعالى في الهاوية، وقد أجبته عن أبياته المتقدمة بقولي، البعض بالمعنى وهي:

أنهي إليك فما عليك من حرج ولاتقول لشيء فات كيف جرا

وعذركم قد قبلناه بلا نظر ممتثلا قول حبر علمه انفجرا

اقبل معاذر من أتاك معتذرا أبر فيما أتى من ذاك أو فجرا

فقد أطاعك من يرضيك ظاهره وقد أجلك من يعصيك مستترا

فأمر ما فات لايجدي تذكره سوى التعرض، لا تعبأ بما اندثرا

ونحن في شغل عنكم وعن قيلكم ولتصنعوا ما بدا لكم فسوف ترى

يقينا قد رست أطواده وسمت فما يحصل إلا الكد من حفرا

فإن يرد بكم الإله مكرمة أعدتم في مآل حالكم نظرا

أما البناي فقد كان يتظاهر إلي بالمحبة في الله تعالى منذ نحو عشر سنين، وبيننا مكاتبات ورسائل. ولما عين للسفر معنا كنت به كالضمآن إذا وجد الماء الزلال، والمريض إذا آنس راحة من إعتلال، وكان لحظة عين لايفارقني، وربما يتواجد من المحبة ويقبل رأسي ويعانقني، وكنت أوثره على غيره، وكان إيثاره اليوم بعد اليوم، أقوى داع وباعث داع وباعث لعداوة القوم، وكان يقول أن الصالحين حردوه، وبأشياء يعدها أسروها إليه وبها أمروه، وكنت أعتقده لكن صار لسانه في النميمة لسع، وخرقه في ذلك اتسع، حتى صدمني وعلى القول فيه أقدمني، فقصرت عن تتبع سقطاته، وإحصاء أفعاله وأقواله، وأمسكت عنه كرامة لي لا له، بعد أن تعينت عندي أوصافه وتميزت، وتجمعت لدي أنواعها وتحيزت، بل جعلت مقابلة مقاطعته وصلا، وكنت على أعدائه نصلا.

هبتنا قدم له عرض كراهة الشر هذ الفتى

ومع هذا فلم يثنيني ذلك كله، فكيف أعتقد محبته، وأظهر مودته، وأراعي غيبته، وحسابنا في ذلك على الله عالم ما في الضمائر، وما تكنه السرائر، وتمادى به الحال إلى أن

صار رفيقا لرفقائه المتقدم ذكرهم، الشنيع نكرهم، الذي بسبب إيثارنا إياه دونهم وتقديمنا له عليهم بلغنا، من القبائح والعداوة التي ذكرنا وسطرنا، وكثيرا من أمورهم سمعتها بنقله، وامتزج بهم قوله وفعله، وكنت مع ذلك أجاهد نفسي في استبقائه، وإن بدت المنابذة من تلقائه، حيث جعل أعدائي من رفقائه، خلاصة أصدقائه، كما قال القائل:

لاتقرب ماستطعت حلف عدو   فخليل العدو حلف عداوة

حرصا مني على حفظ المودة، وأغضيت عن ذلك كله فتمذهبت بقول الآخر:

سامح أخاك إذا غلط   منه الإصابة بالغلط

إلى أن قال:

واعلم بأنك إن طلبت   مهذبا رمت الشطط

وإن كان مثل هذا لايسوغ بين المتحابين، ويأباه كل من فيه حياء أو حشمة، قال الشاعر:

إني وهبتك للذين تحبهم هبة الكرام، فإنها لا ترجع

وقال الآخر:

تكاشر من أبصرت لي ذا عداوة وأنت حبيبي ليس ذاك بمستوى

لأن من يدعي محبتك ويرافق عدوك لايلتفت إليه، ولا يعول عليه، ولم يبق في مرافقته إلا الضرورة، كما قيل:

أعدى عدوك أدنى من وثقت به فخالط الناس واصحبهم على دخل

وقال الآخر:

قلما يؤذيك من لا يعرفك فتحرز من صديق يألفك
لاتثق بالود ممن تصطفي كم صديق تصطفيه يتلفك

فهذا صيره عدوا محضا، ورفض محبته رفضا، ونحن تحملنا له هذا الأمر كله حتى بلغ به الحال أن كان هو وأصحابه المذكورين قبله، في غيبتنا عند مولانا أمير المؤمنين وأطلقوا لسانهم فينا بما يجازهم الله عنه في الدنيا وفي الآخرة، ورد الله تعالى الكيد منهم في النحور، وانقلب كل منهم وهو مذموم ومدور

حمدت الله في قوم أثاروا شرورا فاستحالت لي سرورا

وقالوا: النار قد شبت فلما دنوت لها وجدت النار نورا

وكان يقول أنه بريء من أولائك القوم، وأفصح الآخرون بأنه معهم في ذلك الإتفاق، وأن ماكان يتظاهر به إلينا محض نفاق، فستسئلون وتوفون جزاء ما كسبتم ولا تمهلو (يوم لاينفع مال ولا بنون)، ونسلم له ما ادعى تسليما جدليا، فما بالك لم تراع غيبتنا.

من يسمع الجفوة في خل ولم يغضب لها فإنه كمن جفا

ويرحم الله الوزير الوليد بن عبد الرحمان بن غانم كان صديقا لهاشم بن عبد العزيز ثابتا على محبته ولما قضى الله على هاشم بالأسر أجرى السلطان محمد بن عبد الرحمان الأموي ذكره في جماعة من خدامه، والوليد حاضر فاستقصره، ونسبه للطيش والعجلة والإستبداد برأيه، فلم يكن فيهم من اعتذر عنه غير الوليد، فقال: أصلح الله الأمير، إنه لم يكن لهاشم تخير في الأمور، وليس عليه الخروج عن المقدور وقد استعمل جهده، واستفرغ نصحه، وقضى حق الإقدام، ولم يكن ملاك النصر بيده، فخذله من وثق به، ونكل من كان معه، فلم يزحزح قدمه عن موطن حفاظه، حتى ملك مقبلا غير مدبر، مبليا غير فشل، فجوزي خيرا عن نفسه وسلطانه، فإنه لا طريق للملام عليه، وليس عليه ما جنته الحرب الغشوم، وأيضا فإنه ماقصد أن يجود بنفسه إلا رضا للأمير واجتنابا لسخطه، فإذا كان ما اعتمد فيه الرضى جالبا للتقصير فذلك معدود في سوء الحظ. فأعجب الأمير كلامه، وشكر له وفاءه، وأقصر فيما بعد عن تفنيد هاشم وسعى في تخليصه، واتصل الخبر بهاشم فكتب إليه: الصديق من صدقك في الشدة لا في الرخاء، والأخ من ذب عنك في المغيب لا في المشهد، والوفي من وفى لك إخائك إذا خانك الزمان، وقد أتاني من كلامك بين يدي سيدنا -جعل الله نعمته سرمدا- ما زادني بمودتك اغتباطا، وبصداقتك ارتباطا، ولذلك كنت أشد يدي على وصلك، وأخصك بإخائي، وأنا الآن بموضع لا أقدر فيه على جزاء غير الثناء، وأنت أقدر مني على أن تزيد فيما بدأت به

بأن تتم ما شرعت فيه حتى تكمل لك المنة ويستوثق عقد الصداقة إن شاء الله تعالى، وكتب إليه بشعر فمنه:

أيا ذاكري بالغيب في محفل به تصامت جمع عن جواب به نصري
أتثني والبيداء بيني وبينها رقي كلمات خلصتني من الأسر
فإن قرب الله اللقاء فإنني سأجزيك مالا ينقضي غابر الدهر

فأجابه الوليد: خلصك الله أيها البدر من سرارك، وعجل بطلوعك، في أكمل تمامك وإبدارك، وصلني شكرك على أن قلت ما علمت، ولم أخرج عن النصح للسلطان بما زكيته منك والله شاهد على أن ذلك في مجالس غير المجلس المنقول لسيدي، إن خفيت عن المخلوق فما تخفى عن الخالق، ما أردت بها إلا أداء بعض ما أعتقده لك، فكم سهرت وأنا نائم، وقمت في حقي وأنا قاعد، والله لايضيع أجر من أحسن عملا. انتهى كلامه رحمه الله وجازاه خيرا، فهكذا يكون الأصدقاء. وها أنا أقول لك: يامحمد التهامي البناي كم سهرت في أمرك وأنت نائم، وقمت في حقك وأنت قاعد، ودافعت عنك في غيبتك في أندية الإمارة والمشاهد، حيث لاتهتدي سبيلا ولا تميز دبيرا ولاقبيلا، وكم سترت لك من عوار، وحليت معصمك بسوار، وأنت لم تنطق في جانبا بخير ولو

ببنت شفه، فما هذا السفه، مع علمك بفجور أصابك فيما أذاعوا، ولم تراع حق الإخاء أنت فأحرى أن يراعوا.

كأن لم يكن بين الجفون إلى الصفى أنيس ولم يسمر بمكة سامر

على أنك لم تكلف إلا بقول الحق الذي من لم يتحل به فهو عاطل، ولم تطالب بغير ذلك فالله يحق الحق ويبطل الباطل، وما خطر ببالك من أنك إذا خالفت القوم لاتروح بفائدة من حبالتكم المنصوبة، فأنا أرضيك بما تأمل مطلوبة، وقد كنا نفعل معك ذلك حيث لاموجب إلا مجرد الإخاء والمحبة، فإذا بك تكاتبني وتقول: ماعرفت ما أدري، أم من جنبي أم من ظهري. لله درك من صديق، بالوفاء خليق، والذب عن الإخوة حقيق، ولكن قد عرفنا فنك، واستبنا أنك:

أنتف من الدهر ولو ريشة فإنما حظك ما تنتف

وأجرنا على الله تعالى الذي لاتضيع الحقوق لديه، فلا معول في أخذها من كل من هو عن الإحسان رواغ، وباللسان صواغ، إلا عليه نعوذ بالله ممن يوثر على ذويه وأصدقائه وقبيله، ما

يحوصل في زنبيله، ولله در العالم العلامة أبي جعفر أحمد بن ليون في كتابه، نصائح الأحباب وصحائح الآداب:

أخوك الذي تلفه في كل معضل يدافع عنك السوء بالمال والعرض

ويستر ما تأتي من القبح دائما وينشر ما يرضي وإن سؤته يغضي

وقال:

من لم يكن ينفع في الشدة فلا تكن معتمدا وده

لاتعتمد إلا أخا حرمة إن ناب خطب تلفه عده

وخل من يهزأ في وده ولاترى في معضل جده

وقال:

ليس الصديق الذي يلقاك مبتسما ولا الذي في التهاني بالسرور يرى

إن الصديق الذي يولي نصيحته وإن عرت شدة أغنى بما قدرا

ويرحم الله القائل:

انفض يديك من الدنيا وساكنها فالأرض قد اقفرت والناس قد ماتوا

وقال الآخر:

إثنان عزا فلم أظفر بنيلهما وأعوزا منهما في الدهر مطلبه
أخ مودته في الله صادقة ودرهم من حلال طاب مكسبه

وقال الآخر:

ولا يواتيك فيما ناب من حدث إلا أخو ثقة فانظر بمن تثق

وقال الآخر:

فلا تبث من فتى على ثقة ولا يغرن حجاك من آخي

حتى تراه لدى النوائب إن قاضيته في الحجات هل ساخاى

وعند سعي الوشاة هل تبثت رجلا حشاه من الود أم ساخا

ولكن الله تعالى من ورائكم بالمرصاد، والحق يظهر ولو بعد حين وآماد، فأين التصرف، وأين العمل بمقتضاه من خشية الله تعالى من المراقبة والترقب، إليه والتعرف، وأين الزهد الذي هو أساسه، والورع فيما تفرد أو تنوعت أجناسه، أين البكاء أم أين الصلاة بالليل، أين مرافقة الصالحين -نفعنا الله بهم- الذين كنت تحدثنا عنهم؟ وبمرافقتك معهم من شبابك إلى الشيخوخة، لم يأن لك ان تتخلق بأخلاقهم المهذبة، ولم تدرك بذلك أن تصدع بكلمة حق فيها رضى الله ورسوله، وتنفي عنك العار لحضورك في مجلس واحد على ما تعلم مع أعدائنا، بل وأعدائك لو كان لك تمييز، فإن أصل عداوتنا معهم تخصيصنا لك دونهم، وفعلنا معك البرور الذي لم نفعله معهم، وهذا أمر لايمكنك إلا تسليمه، وإن حدت عنه يحاجك السواد الأعظم، وأجرنا على الله تعالى في ذلك، وأنت على مذهب من قال:

اصطاد قوما بوعظ وآخرين بشعر

فاسمع مايتلى عليك في حق الإخاء يا أخا الرخاء.

لما تألب بنو حسون على القاضي الوحيدي قاضي مالقة -أعادها الله للإسلام- صادر عنه العالم الأصولي أبو عبد الله بن الفخار، وطلع في حقه إلى حضرة الإمامة مراكش، وقام في مجلس أمير المومنين ابن تاشفين، وهو قد غص بأربابه، وقال: إنه لمقام كريم نبدأ بحمد الله على الدنو منه، ونصلي على خير أنبيائه محمد الهادي إلى الصراط المستقيم، وعلى آله وصحابته نجوم الليل البهيم، أما بعد، فإنا نحمد الله الذي مما دهمنا في حماك، نبث لديك ما لحقنا من الضيم ونحن تحت ظل علاك، ويأبى الله أن يدهم من احتمى بأمير المومنين، أو يصاب بضيم من ادرع بحصنه الحصين، شكواي قمت بها بين يديك في حق أمرك الذي قدمته في مالقة للأحكام، ورضيت بعدله فيمن بها من الخاصة والعوام، لم يدل على حسن اختيارك بحسن سيرته، ويرضي الله والناس بظاهره وسريرته، ما علمنا ويرضينا إلى أن تعرضت بنو حسون إلى الطعن في أحكامه، والهد من أعلامه، ولم يعلموا أن اهتضام المقدم، راجع إلى اهتضام المقدم، بل لجوا في لجاجهم فعموا وصموا، وأمضوا مابه هموا:

وإلى السحب يرفع الكف من قد جف عنه مسيل عين ونهر

فلما سمعه بلاغة أعقبت نصره ونصر صاحبه. انتهى كلامه رحمه الله.

ولكن:

لشتان مابين اليزيدين في الندى يزيد سليم، والأغر ابن حاتم

وينظر في هذا المعنى ما قاله المنصور بن أبي عامر للشاعر المشهور أبي عمر يوسف الرمادي : كيف ترى حالك معي؟، فقال: فوق قدري ودون قدرك فأطرق المنصور كالغضبان، فانسل الرمادي وخرج وقد ندم على ما بدى منه وجعل يقول: أخطأت، لا والله ما يفلح مع هؤلاء القوم من يعاملهم بالحق، ما كان ضرني لو قلت له: إني بلغت السماء، وتمنطقت بالجوزاء، وأنشدته:

متى يأت هذا الموت لايلف حاجة لنفسي قد قضيت قضاءها

لاحول ولا قوة إلا بالله. ولما خرج كان في المجلس من يحسده على مكانه من المنصور فوجد فرصة فقال: وصل الله لمولانا الظفر والسعد إن هذا الصنف صنف زور وهذيان لايشكرون نعمة، ولا يراعون إلا ولا ذمة، كلاب من غلب، وأصحاب من أخصب، وأعداء من أجدب،

وحسبك فيهم أن الله جل جلاله يقول فيهم {الشعراء يتبعهم الغاوون إلى ما لا يفعلون} فالإبتعاد منهم أولى من الاقتراب، وقد قيل فيهم: ما ظنك بقوم الصدق يستحسن إلا منهم؟ فرفع المنصور رأسه وكان محبا في أهل الأدب والشعر، وقد اسود وجهه وظهر فيه الغضب المفرط ثم قال: ما بال أقوام يشيرون في شيء لم يستشاروا فيه، ويسيئون الأدب في الحكم فيما لايدرون أيرضي أم يسخط؟ وأنت هنا قد علمنا غرضك في أهل الأدب والشعر عامة، وحسدك لهم، لأن الناس كما قال القائل:

من رأى الناس له فضل ا لا عليهم حسدوه

وعرفت غرضك في هذا الرجل خاصة ولست إن شاء الله أبلغ أحدا غرضه في أحد، ولو بلغناكم بلغنا في جانبكم، وإنك ضربت في حديد بارد وأخطأت وجه الصواب، فزدت بذلك احتقارا وصغارا، وإني ما أطرقت من خطاب الرمادي إنكارا عليه، بل رأيت كلاما يجل عن الأقدار الجليلة، وتعجبت من تهديه إليه بسرعة، واستنباطه له على قلة من الإحسان ما لا يستنبطه غيره مع الكثير، والله لو حكمته في بيوت الأموال لرأيت أنها لاترجح بما تكلم به، وإياكم أن يعود أحد منكم إلى الكلام في شخص قبل أن يؤخذ معه فيه، ولا تحكموا علينا في أوليائنا ولو أبصرتم منا التغيير عليهم فإننا لانتغير عليهم بغضا لهم وانحرافا بل

تأديبا وإنكارا، فإن من نريد إبعاده لم نظهر له التغيير، بل ننبذه مرة واحدة، فإن التغير إنما يكون لمن يراد؟ استبقاؤه، ولو كنت قابل السمع لكل منكم في صاحبه لتفرقتم أيدي سبأ، وجونبت أنا مجانبة الأجرب، وإني قد أطلعتكم على ما في ضميري فلا تعدلوا عن مرضاتي، وتجنبوا سخطي. بما جنيتموه على أنفسكم، ثم أمر أن يرد الرمادي وقال له: أعد علي كلامك، فارتاع فقال له: الأمر على خلاف ما قدرت، الثواب أولى بكلامك من العقاب، فسكن لتأنيسه وأعاد ما تكلم به، فقال المنصور: بلغنا أن النعمان بن المنذر حشا فم النابغة بالدر لكلام استحسنه منه، وقد أمرنا لك بما لا يقصر عن ذلك ماهو أنوه وأحسن عائدة، وكتب له بمال وخلع وموضع يتعيش منه، ثم رد رأسه إلى المتكلم في شأن الرمادي، وقد كاد أن يغوص في الأرض لو وجد لشدة ما حل به مما سمع ورأى، وقال: والعجب من قوم يقولون الإبتعاد من الشعراء أولى من الإقتراب، نعم ذلك لمن ليست له مفاخر يريد تخليدها، ولا أيادي يرغب في نشرها، فأين الذين قيل فيهم:

على مكثريهم رزق من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل

وأين الذي قيل فيه:

إنما الدنيا أبو دلف بين مبداه ومحتضره

فإذا ولى أبو دلف ولت الدنيا على أثره

أما كان في الجاهلية والإسلام أكرم ممن قيل فيه هذا القول؟ بلى، ولكن صحبة الشعراء والإحسان إليهم أحييت غابر ذكرهم، وخصتهم بمفاخر عصرهم، وغيرهم لم تخلد الأمداح مآثرهم فدثر ذكرهم، ودرس فخرهم انتهى كلامه رحمه الله.

ولله در لسان الدين حيث يقول في شأن تلميذه وربي نعمته ابن زمرك:

وما كنت أدري قبل أن يتنكروا بأن خواني كان مجمع خواني

وقد ألف بعضهم شفاء الغليل في ذم الصاحب والخليل، وفي ذلك تآليف كثيرة مثل، نزهة الإخوان للحسن بن وكيع. فقد لعمري وصف إخوان ذلك الوقت ولاسيما هؤلاء بما يستحقون وغير ذلك، مما لو تتبعناه يطول ذكره وتكد النفس والعقل في زحمة مالا يعني، ولشهرته بين الناس وعدم غرابته لايغني. وما فات فما رسمناه فإنما نفثة مصدور، وشكوى من حاله في ذلك معذور، ولا بقصد استقصاء الغائب، وجمع المثالب، فإنها أكثر من أن تعد

أو تحصى، أو تحد وتستقصى، وإنما ذلك عربون يستدل به ويقاس عليه حال هذه الشرذمة ومن

سلك سبيلهم من أهل الناموس اللذين يتعاضدون على البهتان ويتحزبون.

ونسأل الله تعالى أن يسامحنا فيما جمعنا في ذلك من الهزل، فعفوه واسع جزل، ولولا كان

قصدي التنبيه على مثل هؤلاء القوم الملبسين، الذين يحتالون على العامة، فإنهم والله من الدواهي

الطامة. لئلا يغتر بنحاسهم المفضض، وكيفهم المبيض، كما وقع لي فإن المؤمن كما قيل هين لين،

متغافل أحيانا لكنه فطن، بعد الإمتحان، كما ورد في الأثر أنه حذر أيضا لا يلدغ من جحر مرتين،

وأما مرة فقد يستغر، قال تعالى: {فدلاهما بغرور} لما أبديت أمرهم للناس، ولا رسمت

خبرهم في قرطاس. ولو ترك القطا ليلا لنام، وقال تعالى: {لايحب الله الجهر بالسوء من القول

إلا من ظلم}.

وقال تعالى: {وجزاء سيئة سيئة مثلها}.

خاتمة:

والآن عزمت أن أختم هذه الصحيفة، وأطهر فمي من لوك ذكر هذه الجماعة السخيفة، ومن

نتنها الذي هو أنتن من الجيفة، وأضرب عن ذكرهم، وتتبع شنيع نكرهم، فمن أراد أن

يهتدي من الأمور لخيرها، فلتشغله عيوبه عن غيرها.

والله حسيب من ألجأنا إلى ما ذكرنا، حتى أتينا من ذلك ما أنكرنا، لكن رحمته أوسع، والاعتماد على فضله أنفع، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة وقلت:

يا إلاهي أنت المؤمل والمو ئل والمرتجى فقيك رجائي

فذنوبي تعاظمت وتناهت ولباب رحماك فر التجائي

إن تؤاخذ فإني مستحق أو تسامح فالفضل لا لإنتهائي

أثقلت كاهلي ذنوب جسام هائلات قد أردفت في ولائي

ليس لي وزر من الوزر إلا فضل ذي العرش والثرى والسماء

إن يكن مني الصواب فمنه أو يكن ضده لفقر حياء

يا إلاهي فارحم عبدا مقرا بذنوب، لك الغنا عن جزائي

واكتبن عاداته واحسمنهم وارغمن أنفهم بحد القضاء

واتركهم بين الورى في شقاء وعذاب ومحنة وعنائي

بسم الله الرحمان الرحيم

صاحبنا العزيز علينا قونصوا الاصبنيول منويل سلمون أما بعد، نعلمك أن سيدي نصره الله بعثني إلى طنجة وقال لي قل لقونصوا الاصبنيول المال الذي عندكم في اصبانية أترك منه هنالك مائتين وسبعين ألف ريال قيمة الأسارى الذين اشتراهم الراي وتترك أيضا هنالك أربعة آلاف سبيكة من الذهب وابعث الى حضرة سيدنا نصره الله ألف سبيكة والمال كله الزائد على قيمة الأسارى وقد أعطيت لأخينا أمر سيدنا بذلك ثم ان سيدنا نصره الله أمرني ان كان قدر المال لطنجة قريبا نحو الثمانية أيام أو عشرة أو نحوها تقيم بطنجة حتى يقدم لتوجه به الى سيدنا وان كان قدوم المال المذكور متأخرا نحو الشهر نتوجه الى حضرة سيدنا والآن نحبك أن تعلمني مع أول قادم بالمدة الذي يقدم بعدها المال هل شهر أو شهران أو أقل أو أكثر لنسافر واقرأ كتابنا هذا، مرتين أو ثلاثة لتجيبني عن كل مسئلة فيه و الجواب عزما مع أول قادم ولا به فانه ما أخرني هنا إلا الانتظار انتظار الجواب وسلم منا على أولادك ومن تعلق بك وان كان لك غرض في بلادنا فاكتب لنا عليه لنعلم أنك لازلت محافظا على المودة والسلام في 4 جمادى الثانية عام 1203 الموافق 2 مارس 1789

محمد بن عثمان لطف الله به.

الحمد لله صلى الله سيدنا ومولانا محمد وآله

سيدنا ومولانا أمير المومنين، وناصر الدين، أدام الله تعالى أيامه، ونصر أعلامه، وسلام كريم، بر عميم، تترادف على الحضرة العلية بالله نفحاته، ورحمة الله وبركاته.

وبعد فإننا قدمنا لسيدنا المنصور الإعلام بقدوم سيدنا ومولانا الطيب حفظه الله وعاه على تطوان، وصلى بها الجمعة خامس عشر شهر تاريخه، وفي يوم الاثنين يليه، ودع سيدي علي بن أحمد والشرفاء القادمين معه، فظهر لسيدي علي أن يتوجه لناحية مرتيل بقصد التبرك بالوصول إلى الثغر، فمشى معه سيدي علي بن ريسون ومولاي أحمد بن علي بن محمد الموقت والقائد محمد بن عمارة، فصعدوا إلى البرج الذي على شاطئ البحر، فأخرج الطبجية بعض المدافع على سبيل الفرح على العادة، ثم بعد ذلك شرع بعض الطبجية في أخذ البارود من البرميل وقد كان يابسا بعضه على بعض، فعمد من سوء فهمه إلى قادوم وجعل يحفر البارود ويقلعه بها، فكان من قضاء الله وقدره الذي لامرد له ولا محيد عنه، أن قدحت نار فقام البارود داخل البيت الذي هو به، فرمى البيت وحيطانه وتشتتت أحجاره، فكان بالقرب من البيت المذكور مولاي أحمد بن علي وإبن عمارة ورجل من طلبة البلد فماتوا لحينهم رحمة الله عليهم، واثنان من الطبجية اللذان كانا يحفران البارود رماهم في الجو إلى الأرض خارج البرج، وسيدي علي بن أحمد وسيدي علي بن ريسون كانا بعيدين شيئا ما من مكان البارود، فصادفتهما حجارة صغيرة صادفت إحداهما سيدي علي بن أحمد تحت عينه اليسرى، وصادفت أخرى سيدي علي بن ريسون تحت عينه اليمنى، وهما سالمان لا بأس عندهما، والجرح خفيف، وكذا ولد سيدي علي بن

أحمد صبي جرح في رجله جرح خفيف، وولد الحاج عبد السلام السلاوي كاتب سيده مولانا الطيب، إلا أنه جرح في وجهه لما سقط ولا بأس عنده، فمن مات رحمة الله عليه، فقد وقفنا في تجهيزهم ودفنهم، وما دفع الله كان أعظم، وكان أمر الله قدرا مقدورا، والحمد لله على اللطف.

وقد قدم أهل أنجرة وأهل الحوز من هاذه القبائل على سيدنا مولانا الطيب بقصد الإهداء وإظهار الطاعة، وما يتجدد بعد نعرف به سيدنا، والسلام عائد على مقام سيدي ورحمة الله وبركاته.

كتبه يوم الثلاثاء 19 شعبان عام 1208 ، مقبل القدم الشريف، محمد ابن عثمان لطف الله به.

الحمد لله. حبس مولانا الإمام، كهف الإسلام، وظل الله في الأنام، كافل أمة جده عليه السلام، ذو الفتوحات المتسقة النظام، العلامة العلي القدر والشان، أبو الربيع مولانا سليمان، ابن موالينا الخلفاء القادة الشرفاء، خلد الله تعالى للإسلام شريف دولته، وأنار جهات البسيطة بأنوار معدلته، جميع القطعة، بل النصف، شائعا في كافة العرصة الكائنة بكرواوة التي هي من جملة أملاك بيت مال المسلمين، المعروفة بقبيبة عديل، على المسجد الذي أحدث مولانا المذكور، أيده الله، بناءه بحومة المعادي المجاور لدار العلامة البركة سيدي التاودي بن سودة، لتصرف غلة النصف المذكور فيما يحتاج إليه المسجد المذكور من إمام ومؤذن وغيرهما من جميع ضرورياته، حبسا مؤبدا ووقفا مخلدا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو سائله يوم يقف بين يديه. وبسط —حفظه الله تعالى— يد العلامة سيدي التاودي المذكور، قصد —أعزه الله— بذلك وجه الله العظيم والتماس أجزل الثواب بدار النعيم. والله سبحانه المسؤول والمرجو والمأمول أن يجعله من أعماله الصالحة المتقبلة، ومن متاجر أرباحه في الدار الآخرة المؤملة.

شهد على مولانا —أيده الله— بذلك في السابع والعشرين من ذي الحجة الحرام متم عام ثمانية ومائتين وألف علي المقري وعبيد ربه محمد بن عثمان بشكلهما ودعائهما.

ونص التعريف به أسفله:

الحمد لله. الطابع المرقوم بأعلى الرسم أعلاه هو طابع مولانا الإمام المظفر الهمام، الذي عم البسيطة بواكف جوده، وصبغها بعلمه الشريف، واستنارت بوجوده، واستضاءت بطلعته الأيام والأزمان، أمير المومنين مولانا سليمان بن موالينا الشرفاء القادة الخلفاء الأئمة الهداة والنعمات المسرات، أدام الله سلطانه، وأظهر علوه وبرهانه. والخط بالرسم المذكور والشكل الأول هما معا للفقيه المدرس سيدي علي المقري. والعاطف عليه هو الفقيه الكاتب الأرفع سيدي محمد بن عثمان. فمن علم ذلك وعرفه قيده في منتصف ذي القعدة الحرام عام ثلاثة عشر ومائتين وألف.

الملحق المرقوم. سدده. صح به.

بسم الله الرحمان الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

صاحبنا الاعز خرنيم تاب قونصو البلنسيان أما بعد فيصلك، مع حامله صاحبنا، كتاب سيدنا نصره الله لجميع القونصوات، فاجمعهم على عادتكم واقرأوه، وإن أشكل عليكم شيء منه، فالفقيه صاحبنا سيدي عبد الرحمان المفرج هو يبينه لكم وابعثوا لنا الجواب لنبعثه لسيدنا نصره الله، وإن تعلق لكم غرض، فإننا موجودون لإسعافكم فيما تريدون إن شاء الله، ونحن الآن بتطوان، ولا يخفاكم وجه قدومنا فقد بينه لكم سيدنا المنصور بالله، فكل ما يعرض لكم من الاغراض فلا نقصر فيها إن شاء الله والسلام.

ثاني ربيع الثاني عام سبعة ومائتين وألف

محمد بن عثمان لطف الله به آمين.

بسم الله الرحمان الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

صاحبنا العزيز علينا الامجد الانجد وزير الدولة الاصبنيول والامين على أسرارها الكندر أراندره أما بعد نعرفكم أن مولاي السلطان سليمان الملك العادل قلدني أمور جميع أجناس النصارى الداخلة في مملكة سلطاننا العزيز والخارجة في دولهم وممالكهم مفوضا في ذلك، مشفعا ذلك بولاية تطوان الآن لبعض المصالح، ولأجل ما علي من الحقوق لملك اصبانيه السلطان الشهير دن كارلوس الرابع، تعين علي أن نكاتبك لتعلمه بانني دائما في خدمته بصدق وإخلاص لجانبنا وجانبه، وأنا أفرح كثيرا أن يأذن لقناصيله ووكلائه ورعيته الاصبنيوليين أن يأتوا الى مراسي بلادنا بمراكبهم في قضاء أغراضهم وجميع ما يريدون من بلادنا بأمان وطمأنينة فلي تشوف كثير الى إسعاف من يأتي منهم إلينا لنظهر بذلك صدق ما أنطق به من ودادكم، فقد عوضني الله تعالى عما مضى، هذا الملك الجليل فحكني وفوضني في جميع ما نريد من المصالح، ولي اشتياق كثير في تتميم عملنا معكم، فقد تعبت فيه كثيرا فيما تقدم وأرجوا الآن إتمامه إن شاء الله، وقد كاتبتكم عند قدومنا على بلادنا بعد انصرافنا من عندكم فلم يأت جوابكم فنحبكم أن لا تهملوا الجواب، فإن الباعث لنا على المكاتبة، مطلق المحبة والمحافظة على المودة، ونسلم على السيدة الجليلة زوجتكم كثير السلام، ونسئلك أن تنوب عنا عند الملك فيما يجب له علينا ونحن في خدمتكم على الدوام والسلام.

كتبه من تطوان في سابع ربيع الثاني من عام 1207.

محمد بن عثمان لطف الله به.

بسم الله الرحمن الرحيم

الوزير الاعظم بالمملكة الاصبنيولية والامين على أسرارها صاحبنا الكندارانده أما بعد نعرفكم أننا وصلنا حضرة مكناسة كرسي الخلافة وتلاقينا مع سيدنا أمير المومنين الملك العادل العالم العامل مولاي سليمان أدام الله حفظه فقد ظفر المسلمون منه بالحنة الكاملة والشفقة الشاملة والعقل الوافر والعفاف الظاهر والباطن والميل الى الخير والبعد من كل شر وطير ولاسيما مع أحباب والده سيدنا أمير المومنين سيدي محمد رحمه الله ولقد اعتنى بنا سيدنا نصره الله اعتناء كثيرا واستفهمني عنكم وتأسف على ما مضى مما جرى به القضا فحدثته بجميع ما تقدم بيننا وبينكم وبما شاهدناه من حسن سلوككم وميل ملككم الى الخير ومساعفته لنا في جميع المطالب فقال سيدنا نصره الله انه يجب علينا مراعاة هذا الجنس الاصبنيولي واعتباره نظرا الى اتصاله مع سيدنا الوالد أمير المومنين سيدي محمد وطول مصاحبته معه فان من برور المرء بوالديه بروره بأصدقائه والديه وإننا ان شاء الله لا نقصر في الاحسان إليهم والبرور برعيتهم ومسايرتهم بالجميل فأمر سيدنا نصره الله في الحين كافة عمال الاساكل والمراسي أن يقبلوا كل من يرد عليهم من مراكب الاصبنيول ويسرحوا لهم وسق ما يريدون ثم نفيدهم ان الله تعالى ألقى محبة هذا الملك سلطاننا حفظه الله علينا في قلوب الناس كافة فقدموه للخلافة بعد أن امتنع منها حتى اجتمع أهل العلم وألزموه ذلك شرعا لأهليته لذلك وتوفر شروط الخلافة فيه ولا زالت الوفود تقدم على حضرته العلية من كل حدب من بعد واقترب وقد أنهيت لمولاي الملك

جميع ما عايناه من ملك إصبانية الشهير الذكر من ميله الطبيعي الى الهدنة والاطمئنان

فوجدت سيدنا الملك أهلا لكل خير ومعدنا لكل فضيلة والآن قد استقام الميسم وانتظم

الامر وحصل بعد الكسر الجبر في هذه الاطراف كلها ووجدنا فيه والحمد لله ما كنا نتمنى

ونرغب وقد أفصح ببقائه معكم على ما كنتم عليه مع والده سيدنا أمير المومنين سيدي محمد رحمه

الله وأن ما تقدم من الوحشة يطرح ويهمل ويلغي ولا يعمل فحصل لي بذلك فرح كبير ودخل علي

سرور كثيرة بحصولي على بغية ملك إسبانية بمساعفة سيدنا أمير المومنين في جميع المطالب

والحمد لله رب العالمين وان كان لكم غرض عند سيدنا نصره الله فإننا نسعى في تحصيله ان شاء الله

ودمتم في هناء وعافية والسلام كتبه في حضرة الملك مكناسة خامس عشر شوال من عام 1206

محمد بن عثمان

لطف الله به

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم صاحبنا العزيز علينا خوان منويل سلمون أما بعد، نعلمك أنه وصلنا كتابك الأول المكتوب في ثالث شهر مايه والثاني المكتوب في عاشره وقرأنا الجميع وفهمناه أما ما ذكرت في الكتاب الأول من إعادة الكلام الذي كتبت لنا به في ثلاثين من شهر نونبر الماضي فقد كنا أجبناك عنه في ذلك الوقت ومن جملة ذلك ما أخبرتنا به عن بعض أهل الفساد الذين يزرعون الشر ويشيعون بطنجة الكلام السوء مما أنتم بريون منه فقد كنت أجبتك أيضا بأن مثل ذلك الكلام لا ننصت إليه في جانبكم إليه في جانبكم لأنني أعرف الناس بمواطنكم وبحبكم الخير وكلام السفهاء لا يسمع وما ذكرت من توسطك وسعيك في تسريح المتجر بين بلدنا وبلدكم وذلك هو الصواب واللائق وكل من له مروءة وعقل يسعى في ذلك وقد استعملنا في ذلك نحن أيضا غاية ما أمكننا وورد علينا الخبر قبل تاريخه بنحو شهر بمثل ما ذكرت وليست المصلحة في ذلك لجهة واحدة فقط بل للجهتين فالناس كلهم ينتفع بعضهم من بعض على مقتضى الحكمة الإلاهية وكذلك جرت عادة الله في خلقه والذي لا يفتقر لأحد هو الله سبحانه وحده ومع الأيام إن شاء الله تعود الحال كما كانت أو أحسن ونشاهدك مع أهلك وبنيك عندنا كما كنتم أو أحسن، وأما ما ذكرتم في الكتاب الثاني وهو ما بلغكم من خبر ورود نصراني إلى هذه المدينة وسمعتم أنه جاء إلينا ليتكلم في الصلح فبلغكم أننا فرحنا به وذكرت أنك متحقق من عقلنا بأننا لا نسمع كلاما خارجا عن الصواب إلى آخر الكلام فقد فهمنا

ذلك، واعلم أن هذا الرجل الذي ورد لم يظهر لنا شيئا مما بلغكم ولا ادعاه ولا تكلم به ولو تكلم بذلك لم يقبل منه وكيف يتكلم معه أو مع غيره في هذا الأمر وليس بيده وكالة ولا كتاب من ملكه بالتفويض أو الإذن في الكلام في ذلك فهذا بعيد عن العقل بل تعجبنا منك كيف قبلت ذلك وسلك سمعك ولاسيما وقد أفصحت بأنه ليس عنده إذن مع أننا نعرف من فطنتك ما يمنعك من قبول ذلك فالأبصار والبصائر مفتوحة والحمد لله ولو جاء هذا أو غيره فكل واحد يقابل بما يناسب حاله ويصرف بوجه جميل وحقيقة أمر هذا الرجل أنه قال جاء لينظر البلاد ويدور في الأرض كغيره من الناس والأكابر فتعين إكرامه وإنزاله والبرور به حتى يسافر من بلدنا كما هي عادة الناس ولاسيما حيث منتسب لجنسكم ففعلنا ما يناسبنا وأما تجديد عقدة شروط أو غيرها فذلك موكول إلى نظر الملكين حتى يتعين الوقت لذلك من الجهتين إن شاء الله ومع ذلك فالناس مسرحون للسفر من ناحيتنا وناحيتكم في اكتساب مصالحهم ومنافعهم في أمان وهناء كما ذكرت وتلك هي النتيجة والمقصود في الصلح والله تعالى يصلح الأحوال في الحال والمآل وإن كان لكم مأرب أو غرض عندنا فكأنه عندكم فلا تتوقفوا فيه والرئيس الذي أوصيت عليه قد أوقفنا معه من يقضي له أغراضه على وفق مراده كما أوصيتم عليه وكذا كل من يأتي من ناحيتكم فكن مطمئن البال من أجل ذلك إن شاء الله وسلم منا على زوجتك وبنيك والسلام كتبه في 5 شوال من عام 1207.

محمد بن عثمان

لطف الله به.

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

صاحبنا العزيز علينا القونصوا منويل سلمون أما بعد فإنه بلغنا كتابكم ثانيا بتاريخ 13 من مايه تعيد الكلام فيه على شأن هذا النصراني اشبيلي الذي قدم لناحيتنا وتخبرنا فيه بأن الوزير كتب لك بأن هذا الرجل ليس مكلف بشيء قد فهمنا ما ذكرت وكذلك هذا الرجل لم يدع أنه مكلف و مرس وإنما جاء كغيره من الناس مع رفيق وخادم ليس بيده كتاب ولا وكالة ولا شيء يتكلم به ولو تكلم بشيء وهو خال من التوكيل عليه لم يسمع منه شرعا ولا طبعا ولو أظهر شيئا من ذلك لبعثنا لك نستفهمك عنه لتخبرنا فهذا الخبر الذي وصلكم الذي بنيتم عليه كلامكم لا أصل له إنما هو مجرد الظن والوهم من الذي أخبركم فلا ينبغي أن ينصت اليه فلو قدم هذا أو غيره أو ما هو أكبر من ذلك لوجد أمامه الصيارفة الذين ينقدون الكلام ويميزون منه الخالص من الزائف فكن مطمئن البال من ذلك فلا يلحقك قلق ومهما وصلك خبر سوقي فلا يزعجنك وتقبله كما وصلك إذا كان جاريا على غير طريق فإننا محافظون على ذلك فوق ما نظر إن شاء الله لاكن من الواجب علينا ملاقاة الناس بالإحسان ولاسيما الجيران حتى ينصرفون بوجه جميل وكل يعمل على شاكلته وهذا الرجل قد سافر من هنا واعمل الحساب في هذه المدة الماضية كم من كتاب بعثت لنا فيها لتعلم هل أنت مقصر أم لا والسلام في 7 شوال عام 1207.

محمد بن عثمان

لطف الله به.

تقريظ لذخيرة المحتاج

كتاب ذو كتائب وبحر محيط ذو عجائب جليت فيه من أنواع الصلوات والتقديمات والتسبيحات والتحميدات والمناجاة والأدعية والتحيات والتحلية ، بدائع مائسات الاعطاف مستعذبات الجنى والقطاف تتنسم زهر كمام، وتتوسم بدر تمام، وتجتني زهرا وتجتلي زهرا زهرا من روضة محظورة وآيات سر على الاعجاز مفطورة. أما نثرها فنجوم في أفلاك، وأما نظمها فجواهر في أسلاك ... فبرزت هذه الذخيرة بتراجمها كواعب في خيام الافهام كانت مقصورة ، وتثنت أفنانا بين الأذهان محصورة ، فكم فيها من علوم منسجمات الغمائم ورقائق تميل الاعطاف والعمائم ... فناهيك من ذخيرة هي بدور استهلت، وأمطار انهلت ، بل كلها درر وياقوت ، وساحرة ساخرة بسحرها هاروت وماروت، قد لبست الحسن برودا ، وعطرت مسكا وندا وعودا ، تشرح النفوس وتروقها ، ويغص بها طلوع الشمس وشروقها ، قد رقي بها الاتقان مرقى يزهق الراغم عن صفاته ، ولا يتعلق الشبه بصفاته ، إذ رقت فيه المعاني وراقت فيه المغاني ذات أسلوب مستبدع وجمال مستودع استولت على الحسن استيلاء وافترشت النجوم علاء ...

المصادر:

الاكسير في فكاك الاسير/الوزير محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي ط.

رحلة المكناسي (إحراز المعلّى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والتبرك بقبر الحبيب 1785)/ الوزير محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي ط.

البدر السافر لهداية العدو الكافر الوزير/ محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي ط.

إتحاف اعلام الناس/ لابن زيدان الاجزاء 1 -6 ط.

تاريخ تطوان لمحمد داود ط.

مجلة هسبريس تامودا ط.

مصادر لم أقف عليها:

منظومة في قسمة المنازل على البروج محمد بن عثمان خم13365

تقريظ على ذخيرة المحتاج : سفر التقاريظ المغربية لذخيرة المحتاج خ ع 1181 ك

"اقتطاف الأزهار من حدائق الأفكار" لمولاي عبد السلام بن سيدي محمد عبد الله العلوي، 1170 هـ.-1227 هـ الكحيلي، زهراء دبلوم الدراسات العليا : الأدب : الرباط ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية : 1992

تخميس سينية الرياحي [مخطوط] /محمد بن عبد الوهاب الأنصاري، المكناسي

1مج.(ص.-39-44) :الورق ؛22/17سم

خ ع